الأبعاد الجمالية للمشبه به في الخطاب القرآني

أنساق ودلالات

أ.م.د. عدنان عبد السلام أسعد

جامعة الموصل / كلية التربية للبنات / قسم اللغة العربية

(قدم للنشر في ٢٠١٩/١٠/١٦ ، قبل للنشر في ٢٠١٩/١١/٢٨)

ملخص البحث:

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الميامين . وبعد .

فيُعد (المشبه به) ركناً أصيلاً للتشبيه، وبه يكون التشبيه نمطاً من أنماط التصوير البياني ، فهو يُقرّب البعيد ويُبرز المعاني في أشكالٍ يُجسّمها ويُصوّرها ويُمثّلها حيّةً نابضةً واضحةً للعيان ، وغالباً ما تُتّخذ الطبيعة المحيطة بالإنسان والمدركة بحسّه ميداناً لأخذ صور المُشبّه به في بنية الخطاب القرآني ، مع تخيّر أقربها للمتلقي وأكثرها تأثيراً عليه .

والتشبيه من أوجه الإعجاز، وقد اعتمد عليه الخطاب القرآني كثيراً ؛ لأنّه من أساليب التصوير التي لا غنى عنها . فهو عنصر مهم في إيضاح المعاني وبيانها للمتلقي وتقريرها في ذهنه ويزيدها جمالاً وحسناً، ونقل الأفكار وإمتاع النفوس بالصور والأخيلة ، فضلاً عن ما يؤديه من أغراض قصدية أخرى سيأتي بيانها في هذا البحث . ولما كانت له هذه الأهمية جاء بحثنا الموسوم "الأبعاد الجمالية للمشبه به في الخطاب القرآني – أنساق ودلالات" ليستجلي الأبعاد الجمالية والأسرار البيانية لاختيار المشبه به في الخطاب القرآني، وإيثار هذا المشبه به دون الآخر وأثره في رسم الصورة التشبيهية مع الوقوف على شيء من روعة نظمه وإعجازه . وسيستقيم البحث في ضوء ما سبق في مباحث موضوعية مجترحة من الأبعاد الجمالية للدال المشبه به تسبقهما توطئة توصل للعنوان. وبهذا يكتمل المنهج العام الذي سأسير فيه باحثاً في دراسة الأبعاد الجمالية للمشبه به في الخطاب القرآني، منهجُ قائم على دراسة بلاغية تحليلية لبنية المشبه به وأبعادها الجمالية.

Abstract:

The analogy of the miracles, and has relied on the Koran a lot; because it is indispensable methods of photography. It is an important element in clarifying the meanings of the recipient and the report in his mind and increase the beauty, and the transfer of ideas and enjoy the souls pictures and the Achilles, as well as what other intentional purposes will be described in this research. Since it was of such importance came our research tagged "aesthetic dimensions of the like in the Koranic discourse - formats and semantics" to explore the aesthetic dimensions of the choice of the suspect in the Koranic discourse, and the excitement of this similar without the other and its impact in drawing the analogy with a stand on some of the magnificence of systems and miracles. The research will be corrected in the light of the foregoing in the subjective topics invasive of the aesthetic dimensions of the similar D preceded by a prelude rooted address. This completes the general approach in which I will walk a researcher in the study of the aesthetic dimensions of the suspect in the Koranic discourse, an approach based on a rhetorical analysis of the structure of the suspect and aesthetic dimensions.

المبحث الأول . بين يدي العنوان:

- أولاً . التشبيه في المفهومين اللغوي والاصطلاحي:

❖ التشبيه لغة

مأخوذ من الفعل شَبه يشبهُ ، والشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبيهُ: المِثْلُ، وَالجَمْعُ أَشْباهٌ وأَشْبَهَ الشَّيْءُ الشَّيْءَ: ماثَلَهُ ، وأَشْبَهتُ فلاناً وشابهته واشْتَبَه عليّ وتشابه الشيئان واشتبها : أشْبه كل واحد منهما صاحبه . وشبَّهُه إيّاه وشبّهُه به مثّله ، والتشبيه التمثيل[١] . وذكر ابن فارس(ت٣٩٥هـ) إن جذر(الشين، والباء ، والهاء)"أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لوناً ووصفاً"[٢] . والشَّبه ضَرْبٌ من النُحاسِ يُلْقَى عليه دواءٌ فيَصْفرَّ، وسُمّي شَبَهاً؛ لأَنَّه شُبِّه بالذَّهب، وفي فلان شَبَهٌ من فلان وهو شَبَهُهُ وشِبْهُهُ أي شبيهُهُ، قال الله-ﷻ-:﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾(آل عمران: ٧)، أي يُشبه بعضها بعضاً[٣] .

❖ التشبيه في الاصطلاح :

للتشبيه تعريفات عدَّة في المرجعية الاصطلاحية، وهي مع اختلافها في الألفاظ ؛ إلاّ أنها مجتمعة متفقة في الدلالة على المضمون، وأكثر تعريف يدل عليها جميعاً هو تعريف الخطيب القزويني(ت٧٣٩هـ) له بأنّه: "الدلالة على مشاركة أمر لأمر في المعنى"[٤]، وعرفه الشريف الجرجاني(ت٨١٦هـ) بأنه "الدلالة على اشتراك شيئين في وصف من أوصاف الشيء في نفسه كالنور في شمس"[٥]، فهو قائم على علاقة المماثلة بين دالين لغويين يُسميان بطرفي التشبيه هما: (المشبّه) و(المشبّه به) ، يجمع بينهما (وجه الشبه) وأداة (التشبيه) .

❖ المشبه به:

إنَّ الدال (المشبه به) هو "الشيء الذي جاء به المتكلم ليقرن به المشبه فيكتسب منه شيئاً"[٦] . وهو طرف التشبيه الآخر بعد المشبه أو الصورة التي يراد بها تمثيل المشبه، ويغلب أن تكون الصورة أو الصفة في (**المشبه به**) أقوى وأظهر وأشهر منها في المشبه.

(١) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور: ٧ / ٢٤، مادة (شبه) .

(٢) مقاييس اللغة : ٣ / ٢٤٣، مادة(شبه) .

(٣) ينظر: العين، الفراهيدي: ٢ / ٣٠٤، (مادة شبه) .

(٤) التلخيص في علوم البلاغة : ٦٢ .

(٥) التعريفات: ١٢١ .

(٦) التصوير البياني، دراسة تحليلية لمسائل البيان ، محمد أبو موسى : ٢٦ .

❖ ثانياً . التشبيه عند علماء البلاغة

عني الباحثون بدراسة التشبيه عناية واضحة تتمثل في الدراسات الكثيرة التي يراها المُطَلع على كتب الأدب واللغة، وهذا الاهتمام راجع إلى شيوع هذه الخاصية وجريانها في كثير من فنون الكلام، فضلاً عن كثرتها في القرآن الكريم، وحديث رسول الله – ﷺ– وكأنها جزءٌ أصيل في بلاغة اللغة وآدابها، ومن هنا اجتهدوا في دراسته والكشف عن أسراره، ومواطن التأثير فيه[٧] .

والتشبيه يُعد أصل أصيل في الكلام العربي تعمد إليه النفوس بالفطرة، وقد أشار العلماء إليه قديماً، ولعل أول من أفرد له مبحثاً خاصاً هو المبرد (ت ٢٨٥ هـ) إذ قال: "والتشبيه جارٍ كثيراً في الكلام –أعني كلام العرب– حتى لو قال قائل إنه أكثر كلامهم لم يبعد"[٨]، وتحدث عنه أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) فقال: "التشبيه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه، وقد جاء عن القدماء من كل جيل ما يُستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان"[٩] . ويقول السكاكي (ت ٦٢٦هـ) في تعريفه للتشبيه: "هو وصف المشبه بمشاركته المشبه به في أمر"[١٠] . والتشبيه أكثر أنواع الأساليب البيانية اطراداً في كلام العرب عامة ، فضلاً عن أنه طريق لاتساع معارف البشر ، من حيث إنَّه يسهل على الذاكرة عملها ، فيغنيها عن اختزان جميع الخصائص المتعلقة بكل شيء على حدة بما يقوم عليه من اختيار الوجوه الدالة التي يستطاع بالقليل منها استحضار الكثير[١١] . ولعبد القاهر الجرجاني(ت ٤٧١هـ) وقفه مع التشبيه ، بيَّن منها مكانته ومنزلته في البلاغة ، يقول : "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه ، أن التمثيل إذا جاء في أغلب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها، وشبَّ من ناره وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً"[١٢] . والتشبيه لا يقتصر على توليد القوة الدلالية والتأثير اللغوي الحاصل من هذه العلاقات ذات الطبيعة الثنائية للمشبّه والمشبّه به فقط إنما هو فوق ذلك كما يقول كولريدج "تلك القوة

(٧) ينظر: التصوير البياني: ٢٥ .

(٨) الكامل في اللغة والأدب : ٨١٨/٣ .

(٩) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر): ٢٤٣ .

(١٠) مفتاح العلوم: ١٧٧ .

(١١) ينظر: خصائص الأسلوب في الشوقيات : ١٥٨ .

(١٢) أسرار البلاغة : ١١٥ .

التركيبية السحرية التي تشيع نغماً وروحاً يمزج ويصهر الملكات احداهما بالأخرى، هذه القوة التي تكشف عن نفسها في توازن الصفات المتنافرة وإشاعة الانسجام بينها...إنه تنسيق فائق العادة"[١٣] فهو إذن عملية بنائية أدائية حصلت أو تحصل نتيجة تآلف معنوي وصوتي من العلاقة التآزرية في طرفي التشبيه الغرض منه توضيح هوية النص وكشف أسراره المعنوية. بهذا نستدل على عناية العلماء بهذا الأسلوب البلاغي وإعجابهم بصوره وإيرادهم له الصور والأشكال العديدة متناولين إياها بالدراسة والتحليل.

❖ ثالثاً. الأبعاد الجمالية للمشبه به:

نعني بها الآثار الجمالية والأسرار البيانية لاختيار هذا الدال (**المشبه به**) في القرآن الكريم ، وإيثاره دون الآخر ، وأثره في رسم الصورة التشبيهية في الخطاب القرآني. وهذه الأبعاد الجمالية **للمشبه به** ناشئة من أنه عنصر أساس تنشأ بلاغته من أنه ينتقل بك من الشيء نفسه إلى شيء طريف يشبهه أو صورة بارعة تمثله. وله "روعة وجمال ، وموقع حسن في البلاغة، وذلك لإخراجه الخفي إلى الجلي ، وإدنائه البعيد من القريب ، فهو يزيد المعاني رفعة ووضوحاً، ويكسبها جمالاً وفضلاً ، ويكسوها شرفاً ونبلاً ، فهو فن واسع النطاق ، فسيح الخطو ، ممتد الحواشي، متشعب الأطراف، متوعر المسلك، غامض المدرك، دقيق المجرى"[١٤].

ودور **المشبه به** في الصورة التشبيهية هو تمثيل المعاني المعقولة محسوسة، إذ يؤدي وظيفته في تحريك النفس وتوضيح المعنى بعد نقله إلى العيان حياً عن طريقه وفي ذلك يقول عبد القاهر الجرجاني: " إنّ أُنس النفوس موقوفٌ على أن تُخرجها من خفيٍّ إلى جليٍّ، وتأتيها بصريح بعد مكنيٍّ، وأن تردَّها في الشيء تُعلِّمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتُها به في المعرفة أحكم نحو أن تنقُلها عن العقل إلى الإحساس عما يُعلَم بالفكر إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع؛ لأن العلم المستفادَ من طرق الحواسّ أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة، يفضلُ المستفاد من جهة النَظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: ليس الخَبرُ كالمُعاينة، ولا الظنُّ كاليقين فلهذا يحصل بها العِلم هذا الأُنسُ أعني الأُنس من جهة الاستحكام والقوة،... ومعلومٌ أن العلم الأوّل أتى النفسَ أوّلاً من طريق الحواسّ والطباع، ثم من جهة النظر والرَّوِيَّة، فهو إذَنْ أمسُّ بها رَحِماً، وأقوى لديها ذِمَماً، وأقدم لها صُحْبة، وآكدُ عندها حُرمة، وإذْ نقلتَها في الشيء بمَثَله عن

(١٣) الشعر والتجربة، أرشيبالد مكليش: ٥٣.

(١٤) جواهر البلاغة ، أحمد الهاشمي : ٢٤٧ .

المُدرَك بالعقل المحض وبالفكرة في القلب، إلى ما يُدرَك بالحواسّ أو يُعلَم بالطَّبع، وعلى حدّ الضرورة"[١٥] .

وقد تكلم ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) أيضاً عن البعد والأثر الجمالي **للمشبه به** في الخطاب وجعله قائماً على "إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه والتنفير عنه، ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها، كان المعنى مثبتاً في النفس خيالاً حسناً يدعو إلى الترغيب فيها، وكذلك إذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها، كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً قبيحاً يدعو إلى التنفير عنها"[١٦]، وهو بهذا الخيال يثير الإحساس ويحرك المشاعر في نفس المتلقي؛ ولهذا فالتشبيه محاولة بلاغية جادة لصقل الشكل البلاغي وتطوير اللفظ البنائي ، ومهمته تقريب المقاصد إلى الذهن بتجسيده حياً ، ومن ثم فهو ينقل اللفظ من صورة إلى صورة أخرى على النحو الذي يريده المصور[١٧] . ومن هذا فالتشبيه عنصر أساسي في تركيب الصورة الفنية، ولا يتم المعنى القصدي المراد إلا به، فالخطاب الأدبي الممتاز لا يقصد إلى التشبيه بوصفه تشبيهاً فحسب ، بل بوصفه حالة فنية تبنى عليها ضرورة الصياغة والتركيب ، فهو وإن كان عنصراً أساسياً يكسب النص روعة واستقامة وتقريب فهم ، إلا أنه يبدو عنصراً ضرورياً لأداء المعنى المراد من جميع الوجوه ؛ لأن في التشبيه تمثيلاً للصورة ، وإثباتاً للخواطر ، وتلبية لحاجات النفس[١٨] . ولما كان له هذا الأثر والبعد الجمالي في المتلقي شاع بحيث شكّل "أبرز أنواع التصوير اطراداً في كلام البشر عامّة، المسموع منهُ والمقروء، فهو يوسع المعارف من حيث كونه يُسهّل على الذاكرة عملها فيغنيها عن اختزان جميع الخصائص المتعلّقة بكلِّ شيء على حدة بما يقوم عليه من اختيار الوجوه الدّالة التي يمكن بفضل القليل منها استحضار الكثير"[١٩] . فهو ظاهرة بيانية أسلوبية تحتضن الجمالية والبنيوية في الكلام الذي يحصل نتيجة امتزاج الصورة بالخيال، واقتران الفكر بالشكل؛ لأنه ينقلك من شيء إلى شيء آخر يشبهه أو صورة بارعة تمثله.

ولعل السبب في الاهتمام **بالمشبه به** يرجع إلى أنه يحقق مبدأ الفصاحة على صعيد اللفظ مع وضوح الدلالة وغزارة المعنى على صعيد العبارة، وبذلك يكون "التشبيه وسيلة إفصاحية وتعبيرية

(١٥) أسرار البلاغة : ١٢١-١٢٢.

(١٦) المثل السائر: ٢ /١٣١ .

(١٧) ينظر: أصول البيان العربي في القرآن الكريم ، د. محمد حسين علي الصغير: ٦٣.

(١٨) ينظر: المصدر نفسه : ٦٥ .

(١٩) خصائص الأسلوب في الشوقيات ، د. محمد الهادي الطرابلسي: ١٤٢.

لدى الإنسان يزيد المدلول قوة كشفية وبحثية لإبراز المعنى الاستظهاري من خلال حركة العلاقة في التعبير"[٢٠]. وتكمن بلاغته أيضاً في "طرافته وبعد مرماه في كونه ينتقل بالسامع من شيء مألوف إلى شيء طريف يشابهه أو صورة بارعة تماثله . وكلما كان هذا الانتقال بعيد المنال قليل الخطور بالبال كان التشبيه أروع وأدعى إلى إعجاب النفس فيه"[٢١]. فقوة المشبه به في الخطاب القرآني تكمن في مطابقة صورته لحال المشبّه، بحيث لو حاولت مراراً وتكراراً الإتيان بمشبه به آخر في ذلك السياق ما وجدت غيره موافق للحال المضروب له التّشبيه منه الذي جاء به القرآن.

وسنقوم في هذا البحث بعرض أهم هذه الأبعاد الجمالية للمشبه به وأبرزها مع ذكر القيمة الفنية له في الخطاب القرآني، التي أضفت جمالاً ونبضاً وقوة ، هذه الأبعاد الجمالية التي يمكن أن نستشفها من خلال سياق الصورة التشبيهية وما تقوم عليه من دلالات وما تصبو إليه من بنى قصديةٍ ومعانٍ ، ومن أبرز هذه الأبعاد هي: المدح والتزيين، والذم والتقبيح، والتبيين والإيضاح ، والترغيب والترهيب، والتهويل والتعظيم.

المبحث الثاني . الأبعاد الجمالية للمشبه به في الخطاب القرآني:

❖ أولاً. المدح والتجميل :

في كثير من السياقات في القرآن الكريم يؤتى بالدال **المشبه به** ليفيد مدح المشبه وتزيينه وتجميله، وتحسين حالِه، ترغيباً فيه، أو تعظيماً له، بتصويرِه بصورةٍ تهيّجُ في النفسِ مكامن الجمال والاستحسان ، بأنْ يعمدَ المتكلّمُ إلى ذكر **مشبَّهٍ بِهِ** جميل مقبول عند المتلقي ، قد استقرَّ في النفسِ حُسنُه و حبُّه، فيصوّرُ الدال المشبَّهَ بصُورتِه فيزداد جمالاً وحسناً وأنقاً .

ومن ذلك[٢٢] ما جاء في تشبيه الحور العين حينما يؤتى بالدوال المشبه بها (بيض/مكنون) و(الياقوت/والمرجان) و(اللؤلؤ/المكنون) لتجميل المشبه (الحور العين) وبيان حسنهن وفضلهن وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ(٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ**﴾ (الصافات: ٤٨– ٤٩)، فالآيتان تصوّران الحور العين في الجنة وتصفهنَّ بأجمل وصف وأحسنه عندما تُشبّهنّ بـ(بيض مكنون) فالسر البلاغي لهذا الدال **المشبه به** رسم شدة جمال لونهن وحسنهن فـالبيض في الآية بفتح الحاء جمع بيضة، سمي

(٢٠) ترجمان البلاغة ، محمد بن عمر الرادوياني : ٧٩.

(٢١) علم البيان وبلاغة التشبيه في المعلقات السبع ، مختار عطية : ٥٢ .

(٢٢) ينظر أيضاً على سبيل التمثيل: (التوبة: ٦١) و (النور: ٣٥) و (الطور: ٢٤).

بذلك لشدة بياضه والمراد به هنا: بيض النعام. و﴿مَكْنُونٌ﴾؛ مصون مستور تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار، لا تناله الأيدي، وهذا من أحسن ألوان النساء. وهو أن تكون المرأة بيضاء مشوبة بصفرة، قال المبرد: والعرب تقول إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة: كأنه بيض النعام المغطى بالريش[٢٣]. فاختيار هذا الدال **المشبه به** جاء لقصدية التزيين والمدح، إذ يصف شدة حسن وجمال نساء الجنة بتشبيههن بالبيض في الصفاء والنقاء وقد جاء ليحمل ثلاثة أوجه دلالية في تشبيه النساء بالبيض، الأول: في الصحة والسلامة مقارنة بالبيضة عند خروجها من الطائر قبل أن تمسها يد الإنسان الثاني: في الصيانة والستر؛ لأنَّ الطائر يصون بيضه ويحافظ عليه. الثالث: صفاء اللون الناصع البياض الذي يمتاز بالنعومة واللطافة[٢٤]. ونمط التشبيه هنا (مرسل مجمل)، ووجه الشبه هو (الجمال والصفاء والحفظ).

أما المشبه به (الياقوت والمرجان) فقد جاء في قوله تعالى: **﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾** (الرحمن:٥٦-٥٨)، والآيات كسابقاتها تصوّر الحور العين في الجنة وتصف جمالهن عندما تُشبّهنّ بـ(الياقوت والمرجان)، وجاء التوظيف الدلالي لهذا الدال **المشبه به** ليصف شدة حسن وجمال نساء الجنة ومما زاد هذا التزيين والتجميل تعدد الدال المشبه به (الياقوت) و(المرجان) وفي الجمع بينها في الصورة التشبيهية ما يُعرف عند علماء البديع باسم (مراعاة النظير) إذ جمع بين متناسبين، وبهذا الجمع تكون الصورة التشبيهية مرسلة مجملة من نوع (تشبيه الجمع)، ووجه الشبه هو (الجمال والصفاء)، فخدودهنّ في الحمرة كالياقوت، وبشرتهنّ في بياضها وصفائها كالمرجان ، والمرجان: صغار الدرّ[٢٥]، وفي إيثار هذا الدال **المشبه به** دون غيره تجميلٌ للدال المشبه (الحور العين) وتحسينٌ له، وهو أيضاً يُساعد على تقريب صورة المشبّه إلى الأذهان برسم صورةٍ حيّةٍ تُساعد المتلقي على تصوّرهنّ ولو قليلاً. وفي وصفهنَّ بهذا مدحٌ لهنّ وثناءٌ عليهنّ ليزددن حسناً عند طالبيهنّ من المؤمنين في الدنيا . والمشبه الثالث والأخير(اللؤلؤ المكنون) جاء في قوله تعالى: **﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾** (الواقعة:٢٢-٢٣)، فالمشبه به (اللؤلؤ المكنون) قد جمّل صورتهن وحسنها بأجمل تعبير فالمعنى أَنَّهُنّ حسنات العيون ، هذا الحسن بسبب سعة أعيُنِهنّ وجمالِهن ، ولا شكّ أنَّ حسن العين

(٢٣) ينظر: حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ، الهروي : ١٦٩/٢٤.

(٢٤) ينظر: إعراب القرآن وبيانه ، محي الدين الدرويش : ٢٨٦/٦.

(٢٥) ينظر: إرشاد العقل السليم ، أبو السعود :٢٥٢/٥.

يُوجب حسن الوجه ويُزيده حسناً إلى حسنٍ[٢٦] . وعبّر بنسق الجمع (حور) للدلالة على كثرتهنّ. والصورة التشبيهية هنا نمطها (مرسلة مجملة)، ووجه الشبه هو (الجمال والصفاء والحفظ)، هذا التشبيه أفاد تزيين المشبه وتجميله وتحسينه ، إشارةً إلى غاية جمالهنّ وحسنهنّ، فهنَّ كاللؤلؤ الذي لم تُغير جماله الشمس والهواء، وقد جيء بـ(الكاف) مع كلمة ﴿كأمثال﴾ التي تدلّ على التشبيه للتأكيد والزيادة[٢٧]، وفي وصف اللؤلؤ بالمكنون دلالةٌ إضافيةٌ على رفعتهنَّ "فلم يكن تشبيهه-لأ- للحور العين باللؤلؤة في صفائه ونقاسته وعظم قدره فحسب ، وإنَّما المُشبّه به لؤلؤٌ مكنونٌ لم يصبه قذىً ولا أذىً ولا ترابٌ ولا شائبةٌ"[٢٨] . وبهذا أفادت بنى المشبه به في هذه الآيات جمال الحور ورقتهن وحيائهن. فليس في الياقوت والمرجان واللؤلؤ المكنون لون فحسب، وإنما هو لون صاف حيّ فيه نقاء وهدوء، وهى أحجار كريمة تصان ويحرص عليها، وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص، وهن يتخذن من تلك الحجارة زينتهن، فقربت بذلك الصلة واشتد الارتباط، أما الصلة التي تربطهن بالبيض المكنون، فضلاً عن نقاء اللون، فهي هذا الرفق والحذر الذى يجب أن يعامل به كلاهما، أو لا ترى في هذا الكون أيضاً صلة تجمع بينهما، وهكذا لا تجد الحس وحده هو الرابط والجامع، ولكن للنفس نصيب أي نصيب.

ومن سياقات بناء الصورة التشبيهية لغرض المدح والتزيين أيضاً تصوير الغلمان في الجنة وذلك في قوله سبحانه: ﴿ **وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا** ﴾ (الإنسان: ١٩)، فالخطاب يُصوّر شدة جمال الغلمان الذين يطوفون على المؤمنين في الجنة عن طريق المشبه به المعروف بجماله وحسنه عن المتلقي وهو (اللؤلؤ المنثور) فقد شبّههم -لأ- وهم يسعون في الخدمة بين أهل الجَنَّة باللؤلؤ المنثور هنا وهناك لجمالهم وصفائهم وحسنهم، والتشبيه هنا (تشبيه بليغ) المشبه هو (الولدان المخلدون) والمشبه به (اللؤلؤ المنثور)، وأداة التشبيه محذوفه، ووجه الشبه هو (الحسن والجمال)، وشُبّهوا به ؛ لأنَّ اللؤلؤ إذا لم يُثقب كان أشدّ جمالاً ، وأحسن منظراً ، وأبهر وأجمل ما يكون إذا كان متفرقاً هنا وهناك ، لوقوع شعاع بعضه فوق بعضٍ ، وإذا كان الخادم يشعّ جمالاً كاللؤلؤ ، فكيف بالمخدوم من أهل الجَنَّة[٢٩] .

(٢٦) ينظر: تفسير القرآن الكريم (سورة الصافات) ، محمد بن صالح العثيمين : ١١٠ .

(٢٧) ينظر: التفسير الكبير، الرازي : ٢٩/ ١٥٥-١٥٦.

(٢٨) الإيجاز في كلام العرب ونص الإعجاز ، د. مختار عطية : ٢٥٥.

(٢٩) ينظر: الإبداع البياني ، الصابوني : ٣٨٥.

ومن مواضع مجيء المشبه به للمدح ما جاء في سياق مدح الايمان وكلمته وذلك في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ (**إبراهيم: ٢٤ – ٢٦**) . فقد ضرب الله –ﷻ– في هاتين الآيتين على مستوى التشكيل الدلالي مثلاً لكلمة الإيمان (**لا إله إلاّ الله**)، بـ(**الشجرة الطيبة المثمرة**) وهي النخلة في الأرض الطيبة، وجيء بالمشبه به(**شجرة الطيبة**) قصدياً لتزيين المشبه ومدحه، فقد شبهها سبحانه بالنخلة، لعلوها في السماء وثبات أصلها في عروق الأرض فهي في تأصلها في أعماق الأرض وتجذرها في طينتها ومقاومتها للريح والعواصف الشّديدة المدمرة، كثبات الإيمان في جوهر هذه النّفس النّقية. وفي شموخها في السّماء، وارتفاعها عن مثيلاتها من النّبات، وما في ذلك من رفعة القدر وعلو الشّأن والترفع عن الأقذار والشوائب، كهذه الكلمة في علوّ مقامها عند الله. وهذه الطيبة المتعددة متحققة من طيب المنظر والهيئة، وطيب الثّمر ولذته، وطيب الرّائحة وحسنها[٣٠]. ونسق التشبيه هنا (**مرسل مجمل**) وأركانه كالآتي: الدال المشبه هو(**الكلمة الطيبة**) والدال المشبه به(**الشجرة الطيبة**)، وأداة التشبيه هي (**الكاف**)، ووجه الشبه هو (**الثبات والنفع والجمال**) .

ومن ذلك أيضاً مدح النبي –ﷺ– وآله وصحبه وذلك في قوله تعالى: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (الفتح: ٢٩) . فقد تضمّن الخطاب القرآني ما في صفات النبي–ﷺ– والصحابة من المدح بشدتهم على الكافرين ورحمتهم بالمؤمنين، وطلبهم فضل الله ورضوانه في ركوعهم وسجودهم، وتضمّن المشبه به (كزرع أخرج. . .) . والتشبيه هنا (تمثيلي) والدال المشبه هو (محمد– ﷺ– وآله وأصحابه) والدال المشبه به (الزرع الذي يخرج من الأرض ثم يؤازر بعضه بعضاً) ، وأداة التشبيه هي (الكاف)، ووجه الشبه هو(مركب من التدرج في النحو، والتحول من القلة إلى الكثرة إلى الاستحكام والقوة)، وبنية القصد للآية: "إنَّ مثل محمد (ﷺ) وصحابته الكرام في الإنجيل كزرع أخرج فروعه فقواه حتى صار غليظاً فقام واستقام على أصوله (يعجب الزراع ليغيظ بهم

(٣٠) ينظر: زاد المسير ، ابن الجوزي : ٤ / ٣٥٩–٣٦٠ .

الكفار) أي ليغتاظ بهم الكفار، قال الضحاك: هذا مثل في غاية البيان، فالزرع محمد (ﷺ) والشطه أصحابه ، كانوا قليلاً فكثروا، وضعفاء فقووا"[٣١]. ولا يخفى مافي التشبيه التمثيلي من مدح وثناء عليهم. وأثرٍ بليغٍ في النفس" لما في وجهه من التّفصيل الذي يحتاج إلى إمعان فكر، وتدقيق نظر وهو أعظم أثراً في المعاني، يرفع قدرها، ويضاعف قواها في تحريك النّفوس لها، فإن كان مدحاً كان أوقع، أو ذماً كان أوجع، أو برهاناً كان أسطع، ومن ثمّ يحتاج إلى كدّ الذّهن في فهمه"[٣٢].

ومن المواطن التي جيء **بالمشبه به** لغرض تحقيق قصدية المدح والتزيين أيضاً ما جاء في وصف نسوة المدينة لسيدنا يوسف –عليه السلام– بـ(الملك الكريم) في قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾ (يوسف:٣١). فبنية الخطاب صورت على لسان النسوة شدة جمال سيدنا يوسف –عليه السلام– وكماله بالملائكة وقد جيء بالدال المشبه به (ملك كريم) لتحقيق هذا الغرض القصدي في رسم صورة الحسن والجمال والعفاف والسمو لسيدنا يوسف–عليه السلام– فضلاً عن بيان لنزاهته وتقريباً له من صفات الملائكة الروحانيين. وحصل هذا المعنى؛ لأنَّ التشبيه جاء بلا أداة وهو ما يسمى بالتشبيه المؤكد. وقد كانت هيكلة الصورة التي رسمها المشبه به (ملك كريم) تجسيداً لجمال ونقاء سيدنا يوسف –عليه السلام– إذ ركزت على إبعاد الشكوك بنزاهته من أجل تبرئته من التهمة التي حاولت امرأة العزيز أن تثبتها عليه. وبهذا رسم **المشبه به** المعاني أمام الأعين، وفي الأذهان وصورها ويعود ذلك إلى القدرة الدلالية التي يمتلكها في اخراج المعاني من الخفي إلى الجلي مع اقتران الجانب المعنوي بالجانب الحسي؛ إذ إنَّ العلاقة بين المشبّه والمشبّه به تجعل المعنى الدلالي عرضة للتنويع المستمر؛ لاشتراك السياق في هذه العلاقة التآزرية.

❖ ثانياً. الذم والتحقير:

مثلما يؤتى بنسق الدال **المشبه به** في الخطاب القرآني للمدح والتجميل ، فإنه يؤتى به في سياقات أخرى ليفيد ذم المشبه وتحقيره ، أي: تشويهُ المشبَّهِ وتقبيحُه، تنفيراً منه أو تحقيراً له، بأنْ يصوّر بصورةٍ تَمَجُّها النفسُ، ويشمئزُّ منها الطبع.

(٣١) ينظر: صفوة التفاسير، الصابوني: ٣ / ٢٢٨.

(٣٢) جواهر البلاغة : ٢٦٥.

من ذلك[٣٣] ما ورد في ذمّ رجل من بني إسرائيل وهو (بلعم بن باعوراء) وتحقّيره بأقبح صورة وأذلّها ، عندما عرف الحق وانقلب عنه ولم يعمل به عندما يؤتى بـ(الكلب اللاهث) ليكون مشبهاً به، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)** ﴾ (الأعراف: ١٧٥ – ١٧٦) . فالآيتان تعرضان قصة رجل من بني إسرائيل هو "بلعم بن باعوراء" أُوتي علماً ببعض الكتب المقدسة ولكنه لم ينتفع بها ثم كفر بها ونبذها وراء ظهره، وركن إلى الدنيا واطمأن إليها[٣٤]، فشبهه عند تركه لآيات الله بعد العلم بها في المثال بصورة الكلب اللاهث[٣٥]، على طريقة التشبيه التمثيلي ذماً له وتحقيراً ، ووجه الشبه منتزع من متعدد هو(التساوي في الحالين) .

ولا يخفى ما في سر الاختيار **بالمشبه به (الكلب)** دون غيره في ذم هذا الرجل وتحقيره وتقبيح صورته لدى المتلقي، وقد تعاضدت الكلمات في هذا السياق لتعضيد قبح صورة المشبّه به كلمات لا تجد في مفردات اللّغة –على كثرتها– ما يقوم مقامها ويسدّ مسدّها وهي (**انسلخ، أتبعه، رفعناه، أخلد، يلهث**) وغيرها كلمات تصور هذه المعاني وتبرزها في صور حية متحركة، قال الزمخشري (ت٥٣٨هـ): "(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ) فصفته التي هي مثلٌ في الخسة والضعة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها وهي حال دوام اللهث به واتصاله، سواء حمل عليه– أي شدّ عليه وهيج فطرد– أو ترك غير متعرّض له بالحمل عليه. وذلك أنّ سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا هيج منه وحرّك، وإلا لم يلهث، والكلب يتصل لهثه في الحالتين جميعاً، وكان حق الكلام أن يقال: ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته، فوضع قوله: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ) موضع حططناه أبلغ حط؛ لأنّ تمثيله بالكلب في أخس أحواله وأذلها في معنى ذلك"[٣٦] . و"قد وجد القرآن في الكلب شبهاً يبين عن خسته وحقارته، ومما يزيد في الصلة بين الاثنين أن هذا المنسلخ يظل غير مطمئن القلب، مزعزع العقيدة، مضطرب الفؤاد، سواء أدعوته إلى

(٣٣) ينظر: أيضاً على سبيل التمثيل:(البقرة: ١٨) و(الأنعام: ٣٩) و(محمد:١٢) و(المنافقون: ٤) و(الفيل:١–٥) .

(٣٤) ينظر: القرآن والصورة البيانية: ٦٧ .

(٣٥) ينظر: الإبداع البياني: ١٠٤ .

(٣٦) الكشاف: ٢ / ١٧٨ .

الإيمان، أم أهملت أمره، كالكلب يظل لاهثاً، طردته وزجرته، أم تركته وأهملته"[٣٧].

ومن ذلك ما ورد في ذمّ اليهود وتحقّيرهم بأذلّ صورة ، عندما عرفوا الحق ولم يعملوا به أيضاً بتشبيههم بالحمار وذلك في قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ (الجمعة:٥)، **فالمشبه به** هنا (الحمار) وظف أبلغ توظيف لذم اليهود وبيان صورتهم القبيحة في عدم انتفاعهم من التوراة عندما تضعهم في لوحة واحدةٍ هم والحمار أحدهم بجنب الآخر، فقد "شبه الله تعالى اليهود بالحمار يحمل على ظهره أحمالاً من كتب العلم لا ينتفع بها، ولا يعقل ما فيها، وليس له إلا ثِقْلُ الحِمْل من غير فائدة"[٣٨]. والتشبيه مركب من أحوال الحمار، وهو حرمان الانتفاع بأبلغ نفع مع تحمل التعب في استصحابه[٣٩]، "وهذا التشبيه اخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، وقد اجتمعا في الجهل بما حَمَل، وفي ذلك العيب لطريقة من ضيّع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية"[٤٠]، وقيل :"ان جهل اليهود وإغفالهم ما في التوراة من أمر محمد (ﷺ) معنى يستفاد من المعنى اللغوي في الآية، ومن التمثيل"[٤١]

والتشبيه هنا (تمثيلي) وأركانه كالآتي: الدال المشبه هو (أحبار اليهود) والدال المشبه به (الحمار)، وأداة التشبيه هي (كمثل)، ووجه الشبه هو(مركب وهو عدم الانتفاع)، وفي نسق التشبيه التمثيلي ذمٌ وتحقيرٌ لهم بتضييعهم الأمانة ، فهم "قد تعاموا عنها واضربوا عن حدودها وأمرها ونهيها حتى صاروا كالحمار الذي يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها"[٤٢]، وفيه تعريضٌ بكلّ من لم يعمل بعمله ، إذ هو ينطبق على كلّ عالمٍ لم يُطبّق علمه ، ولم ينتفع به ، وتعامل مع علمه تعامل الأحبار اليهود بالتوراة، واختير الحمار **كمشبه به** من دون الحيوانات لزيادة التحقير والإهانة، وإيغالاً في السخرية والتهكم بهم وفيه "صور عدة مترابطة بين حاملي التوراة والحمار الحامل للأسفار، ترابطت واتحدت حتى ظهرت هذه الصورة التشبيهية المعروضة... ويبدو أنَّ سبب تشبيه اليهود بالحمار من بين سائر الحيوانات في هذه الآية أمور منها : ان الحمار

(٣٧) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي : ١٥٨.

(٣٨) صفوة البيان لمعاني القرآن: ٧٢٣ .

(٣٩) ينظر: الإتقان في علوم القرآن : ٣ / ١٤٤ .

(٤٠) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٨٤ .

(٤١) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، فتحي أحمد عامر: ٣٠٩ .

(٤٢) كتاب الجمان في تشبيهات القرآن ، ابن ناقيا البغدادي : ٢٦٦ .

من أشهر الحيوانات بالبلادة والجهالة حتى قالوا للبليد على سبيل المثال (أجهل من الحمار) يعني حمار بن سويلك، الذي يقال له : أكْفَرَ من حمار، ولما كان المقصود إعلان بلادة روح اليهود وجهلهم بالتوراة وعدم الاستفادة منه وقع هذا التشبيه"[٤٣] فالحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبيل، فهكذا اليهود، وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه، ويعلم ما فيه، لئلا يلحقه الذّم ما لحق هؤلاء[٤٤]، ولسيد قطب قول في ذلك يبين "أن بني إسرائيل حملوا التوراة وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة (ثم لم يحملوها)... فحملُهَا يبدأ بالإدراك والفهم والفقه، وينتهي بالعمل لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وعالم الواقع، ولكن سيرة بني إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم ـ وكما هي في حقيقتها ـ لا تدل على انهم قدروا هذه الأمانة، ولا انهم فقهوا حقيقتها ولا انهم عملوا بها، وليس شريكاً في الغاية منها"[٤٥] .

وفي إيثار هذا **المشبه به(الحمار)** من بين سائر الحيوانات لما فيه من الذل والحقارة ما ليس في غيره بل والجهل والبلادة كما مر، فضلاً عن المناسبة اللفظية الموجودة بين لفظ الأسفار والحمار، فالسياق القرآني يحول لفظة (السِفر) التي على وصفها الاعتباري القائم على حفظ العلم والإعلان عن مضامينه إلى معنى الكشف والوضوح زيادة بجهل اليهود وغبائهم فالجهل والبَلادة أظهر في الحمار من غيره، فضلاً عمّا فيه من الذلّ والحقارة ما لا يكون في غيره، وحمل الأسفار عليه أتمّ وأعمّ وأسهل، لكونه ذلولاً، سلس القيادة، ليّن الانقياد يتصرّف فيه الصبي الغبي من غير كلفةٍ ولا مشقةٍ، وعلى هذا أصبح (السِفر) في سياق الآية الكريمة السابقة الذكر أداة إدانة للمعاندين الذين أنكروا ما ورد فيه، فالإشارة ضمنية وهم في موقف ضعف فلديهم الدليل القاطع والكتاب الدامغ ولا يفهمون ما بين أيديهم مثلهم ومثل الحمير والأنعام سواء[٤٦] .

وقريب من هذا التشبيه تشبيه كفار مكة بالبهائم في قوله تعالى: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾(البقرة: ١٧١)، فقد جيء بالمشبه به﴿ **الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً** ﴾ لذم كفار مكة بتشبيههم بالغنم في كونهم لا ينتفعون بما دُعوا إليه إلا مجرد سماع صوت. فهذا المشبه به يصورهم في عدم فهمهم عن الله ورسوله محمد -ﷺ- وعدم استجابة الدعوة وتشبههم بالمنعوق به من البهائم التي لا تفهم من الأمر والنهي غير الصوت. وقد اختلف المفسرون

(٤٣) التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، واجدة عبدالمجيد الأطرقجي: ١٨٢.

(٤٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١٨ / ٦٢ .

(٤٥) في ظلال القرآن : ٢٨ / ٩٧-٩٨ .

(٤٦) ينظر : الآلة والأداة في التعبير القرآني ، شذى معيوف يونس : ٢٦ .

في معنى الآية فقيل معناها مثل الكافرين الذين يدعون آلهتهم وأوثانهم فلا تفقه من ورائها شيئاً كمثل الناعق الذي يصوت للأغنام فلا تفهم منه شيئاً، ولا تسمع إلا دوي الصوت دون إلقاء ذهن أو فكر، وهناك تفسير آخر: أي مثل داعي الكافرين الذين يستجيبون للدعوة لأنهم لا يعقلون فهم كالحجارة لا تسمع ولا تبصر وتتعرض للهلاك وتقدير الآية: مثل داعي الذين كفروا كمثل الناعق بالأغنام في أنَّ دعوته لا تغير، أو مثل الذين كفروا كمثل الأغنام المنعوق بها في عدم الاستجابة[٤٧]. وعلى كلا التأويلين في الآية تشبيه يراد به ذم كفار مكة وتشويه صورتهم بتشبيههم بالبهائم في عدم الاستجابة للدعوة والتفقه فيها والانتفاع بها ونسق التشبيه هنا (تمثيلي) وأركانه كالآتي الدال المشبه هو (الكفار) والدال المشبه به (البهائم)، وأداة التشبيه هي (كمثل)، ووجه الشبه هو(عدم الانتفاع). ومما عمق هذا المعنى حذف المسند إليه في قوله تعالى: ﴿صمٌ بكمٌ عميٌ﴾ أي : هم صمٌ، رفع على الذم، لأنَّهم كالبهائم لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهمه ولا تعقله[٤٨]. أو تشبيه بليغ أي هم كالصم في عدم سماع القرآن و كالعمي وكالبكم في عدم الانتفاع بنور القرآن. والإتيان بالمشبه به (الحمار) يتكرر في موضع آخر في القرآن الكريم لغرض تحقير المشبه وذمه وذلك في قوله تعالى: ﴿ **فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ**﴾(المدثر: ٤٩– ٥١) ، آيات تصور حال مشركي مكة عند سماعهم للقرآن ودعوة النبي بحال الحمر الوحشية وهي تفر هاربة عند لقياها الأسد والسباع فزعة من شدّة خوفها دون هدفٍ ولا اتجاهٍ وهذا ما قرره الوصف (مستنفرة) فقد أضافت إلى غباء الحمر ضعفها. والناظر في الآية يرى أن الدال المشبه به ﴿ **حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ**﴾ جيء به قصدياً لذمهم وتشويه صورتهم وتقبيحها. فالسر في اختيار (الحمر) هنا من دون سواها من الحيوانات إشارة إلى بلوغهم الغاية القصوى في الجهل والبلادة والغباء، فإعراض هؤلاء المشركين عن التذكرة دلالة واضحة على شدة غبائهم وفرط بلادتهم، وهناك سر آخر في هذا التشبيه، فقد شبه هؤلاء القوم بالحمر في عَدْوِها وخِفَّتها دلالة على موقف أولئك المعرضين عن القرآن، وتصوير دقيق لهم وقت سماعهم لتلك الآيات وتلاوتها عليهم، فما أن يسمعوا آيات الله إلا ونراهم يفرون منها في خِفَّة وطيش، فحالتهم هذه كحالة الحمر وقد لفَّها الذعر، وشملها حين رأت الأسد مقبلاً عليها، وهذا سر من أسرار القرآن الكريم، وخصيصة من خصائص تشبيهاته وهي تلك القيود التي يجعلها في المشبه به فمن عادة القرآن في رسم صورة التشبيه أن يذكر فيها من

(٤٧) ينظر: البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي: ٦٥٧/١.

(٤٨) ينظر: في جمالية الكلمة دراسة بلاغية نقدية ، د.حسين جمعة: ١٥.

القيود وأحوال الصياغة مما يجعلها معبرة تعبيراً دقيقاً عن الغرض، ولهذه القيود والأحوال شأن في صورة التشبيه لا ينتبه إليها إلا المعني بإبراز نواحي الجمال، وسر البلاغة في الأسلوب[٤٩] . والتشبيه هنا (تمثيلي) وأركانه كالآتي: الدال المشبه هو (كفار مكة) والدال المشبه به (الحمر الوحشية المستنفرة)، وأداة التشبيه هي (كأنّ)، ووجه الشبه هو(الخوف والرعب والإعراض)، والقسورة: الأسد .

وأوثر التعبير بالتشبيه التمثيلي دون غيره لمناسبته لحال مشركي مكة، فهم لا يريدون إعمال عقولهم في خلق السّماوات والأرض ليهتدوا إلى الخالق، وهم -في الوقت نفسه- لا يستجيبون إلى الدّاعي، بل كلّما عرض عليهم دعوته ابتعدوا عنه مسرعين، وكأنّ في أعماقهم شيئاً يحثهم على الهرب منه والابتعاد الخاطف من طريق دعوته، هذه الحالة لا تكفي لها حالة الحمر، فهو يريد أن يصور نفرتهم من الدعوة، وإسراعهم في إبعاد أنفسهم عنها، إسراعاً يمضون فيه على غير هدى، فوصف الحمر بأنها مستنفرة تحمل نفسها على الهرب، وتحثها عليه، يزيد في هربها وفرارها أسد هصور يجرى خلفها، فهي تتفرق في كل مكان، وتجرى غير مهتدية في جريها، أو لا ترى في صورة هذه الحمر وهي تجد في هربها لا تلوى على شيء، تبغى الفرار من أسد يجرى وراءها، ما ينقل إليك صورة هؤلاء القوم معرضين عن التذكرة، فارين أمام الدعوة لا يلوون على شيء، سائرين على غير هدى، ثم ألا تبعث فيك هذه الصورة الهزء بهم والسخرية منهم[٥٠] .

وفي إيثار هذا المشبه به (**الحمر الوحشية المستنفرة**) دون غيره أيضاً كناية عن سفاهة رأيهم وبلادة عقلهم، وقلة نصيبهم من الفهم والإدراك، ومذمة واضحة وتهجين لحالهم وتشنيع وتنكيت بهم أيّما تنكيت، وهم قد نالوا هذا الوصف عن استحقاق وجدارة، كيف لا وقد دعاهم داع إلى ما يزعم أنّ فيه صلاح رأيهم وحسن منقلبهم ومآلهم، فلا يقفون هنيهة يسمعون كلامه، وينظرون حجته وبرهانه، فإن كان حقاً أشفقوا على أنفسهم فتبعوه وأطاعوه، وإن كان باطلاً ردوا إليه بضاعته وزادوه، وخلوه وكلامه وتركوه .

وقريب من هذا الخطاب نقرأ قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾(العنكبوت: ٤١)، ففي هذه الآية ضرب الله -ﷻ- مثلاً وصورة واضحة لحال الكافرين وأعمالهم الفاسدة حين شبهها بالعنكبوت الذي أقام بيته الواهي على نسج مهلهل لا يثبت أمام الهواء، وقررها في الأذهان حين أتى بهذه

(٤٩) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، د. محمد أبو موسى : ٤٨٦ .

(٥٠) ينظر: من بلاغة القرآن : ١٥٤.

الصورة الحسية التي لا تبرح الفكر، ولا تغادر الشعور ذماً لهم وتحقيراً بعدم الانتفاع . والتشبيه هنا (تمثيلي) وأركانه كالآتي: الدال المشبه هو (**الذين اتخذوا من دون الله أولياء**) والدال المشبه به (**العنكبوت**)، وأداة التشبيه هي (**كمثل**)، ووجه الشبه هو(**عدم الانتفاع**)، إذ شبه حال من اتخذ الأصنام أولياء، واعتمد عليها راجياً نفعها وهي ضعيفة لا تنفع حتى نفسها، بحال العنكبوت التي اتخذت بيتاً، فكما أن بيتها لا يدفع عنها حراً، ولا برداً ولا مطراً ولا أذى، وينتقض بأدنى ريح، فكذلك الأصنام، لا تملك لعابديها نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً، فالآية من قبيل تشبيه الهيئة بالهيئة، تشبيه حال الكفار بحال العنكبوت[٥١] . قال الترمذي(ت ٣٢٠هـ):" وإنَّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت؛ لايستر ولا ينفع ولا يدفع حراً ولا برداً كذا كل معبود دونه، أي أنَّ الكافر عارٍ عن ستر الله، يخرج إلى الله عارياً، فلا يُكسى وتبدو فضائحه وقبائحه على رؤوس الأشهاد"[٥٢] .

ومن ذلك أيضاً تشبيههم في مواضع عدة بالأنعام وذلك في قوله تعالى:﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾(الأعراف: ١٧٩)، وقوله تعالى:﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾(الفرقان: ٤٤) ، وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** ﴾(محمد: ١٢) . ففي جميع هذه الآيات الكريمات جيء بالمشبه به (**الأنعام**) لذم المشبه وتحقيره وهم المعرضون عن الحق غير المتبعين له من الجن والأنس بتشبيههم بالحيوانات التي ليس لها هم سوى الأكل والشرب ، ولعدم انتفاعهم بقلوبهم باعتقاد الحق وبأعينهم في النظر والتأمل في ملكوت الله وخلق الله تعالى ولم ينتفعوا بآذانهم في سماع الحق فصاروا كالأنعام الذين لا ينتفعون بالحق وإنما فطرهم الله لما يصلحون له ، وقد عمل هذا المشبه به على تقرير هذه الغرض لدى المتلقي وتحقيقه ، فالتشبيه قائم على صورة حسية بتشبيههم بالأنعام و"الجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له وجعل الأكثرين أضل سبيلاً من الأنعام؛ لأنَّ البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يميناً ولا شمالاً والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم والأنعام تفرق بين ما يضرها من

(٥١) ينظر: حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ، الهرري الشافعي: ٢١ / ٤٤٢.

(٥٢) الأمثال من الكتاب والسنة: ٣٨ – ٣٩ .

النبات والطريق فتتجنبه وما ينفعها فتؤثره والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوباً تعقل بها ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار فهم أضل من البهائم فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل إليه أضل وأسوأ حالا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه"[٥٣] .

❖ ثالثاً . التبيين والإيضاح:

التبيين والإيضاح والتفصيل من مطالب علم البيان، وبدونها يكون التعبير غامضاً غير مفهوم؛ لذلك يؤتى بالتشبيه لإيضاح المعاني المراد بيانها وتقريبها إلى ذهن المتلقي ، يقول العلوي: "وهذه هي أيضاً هي فائدة التشبيه الكبرى، فإنه يخرج المبهم إلى الإيضاح والملتبس إلى البيان، ويكسوه حلة الظهور بعد خفائه، والبروز بعد استتاره"[٥٤] .

ومن هذا البعد الجمالي[٥٥] ما نقرأه في قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ (البقرة: ٧٤) . آية تصف حال قلوب بني اسرائيل بعد أن رأوا الكثير من آيات الله التي عددها، بقساوة القلوب، وضعف الوازع الديني فيها، حتى أصحبت أشد من الحجارة قساوةً؛ لأن بعض الحجارة يتشقق فيخرج منه النهر الخيّر والماء الزلال النافع، وبعضها يخرّ من خشية الله-ﷻ- لو كان له عقل مثل بني الإنسان. أما هذه القلوب فلم تتأثر بالعظات والعبر ولم تنفذ إلى أعماقها النذر والآيات.

وجيء بالمشبه به(الحجارة) لبيان حال قلوب بني إسرائيل ومقدار قسوتها، فقلوبهم كالحجارة في القساوة، والتشبيه هنا (مرسل) وأركانه كالآتي الدال المشبه هو (القلوب) والدال المشبه به (الحجارة)، وأداة التشبيه هي (الكاف)، ووجه الشبه الذي تمحورت فيه البنية القصدية هو(القسوة والصلابة). والغرض البلاغي من إيثار الدال المشبه به (الحجارة) بيان حال المشبه وإيضاحه، فحين تكون صفة المشبه به معلومة لدى المخاطب ، وتكون صفة المشبه مجهولة يساق التشبيه تمكيناً للمخاطب من

(٥٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن القيم الجوزية : ١ / ١٩٥ .

(٥٤) الطراز ، العلوي : ١٣٣ .

(٥٥) ينظر أيضاً على سبيل التمثيل:(البقرة:٢٢٠)و(آل عمران:٤٩و٥٩)و(المائدة:١١٠)و(الأنفال:٦)و(يونس:٢٧) و(يوسف:٦) و(النحل:٩٢) و(النور:٣٩-٤٠) و(الاحقاف:٣٥)و(يس:٣٩)و(الحشر:١٤-١٧)و(الحاقة:٧) .

إدراك حال المشبه وتمثلهُ[٥٦] فحال المشبه الذي هو قلوب بني إسرائيل مجهول لدى المخاطب، وقد بيّن الله-ﷻ- هذا الحال ووضحها فأتى بمشبه به معروف لدى الناس بقساوته وصلابته، فقلوب الإسرائيليين في قسوتها مثل الحجارة، والناس جميعاً يدركون حقيقة قسوة الحجارة، وقد زاد التعبير تأكيداً حين قال: (أو أشدّ قسوة)؛ لأن من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير الغزير، ومنها ما ينشق انشقاقاً بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضاً، بالإضافة إلى ذلك أنه "شبه الله -ﷻ- قلوبهم في القسوة بالحجارة؛ لأن الحجارة هي غاية في المثل"[٥٧] .

ومن ذلك أيضاً الصورة التشبيهية في قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ (الأنبياء: ١٠٤) . في هذه الآية يخبر ربنا -ﷻ- أنه يوم القيامة يطوي السماوات -على عظمها واتساعها- كما تُطْوى الورقة في الكتاب، ، فتنثر نجومها، ويكور شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ**﴾ . وفي هذا الخطاب تشبيهان جيء بالمشبه بهما﴿ **طَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**﴾ و﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ**﴾ لبيان وإيضاح طي السماء بطي الأوراق وإعادة الخلق بعد البعث، ففيهما من تصوّر حال المشبَّه ووضوحه مالا يخلفه أي تعبير ولا يسد مسدَّهُ أي بيان، والتشبيه الأول: ﴿ **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**﴾ (مرسل) وأركانه كالآتي الدال المشبه هو (طي السماء) والدال المشبه به (طي الكتب)، وأداة التشبيه هي (الكاف)، ووجه الشبه هو (اللف والانطواء) . والثاني ﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ**﴾ (مرسل مجمل) وأركانه كالآتي الدال المشبه هو (إعادة الخلق) و الدال المشبه به (ابتداء الخلق)، وأداة التشبيه هي(الكاف)، ووجه الشبه هو (إِمْكَانُ كِلَيْهِمَا وَالْقُدْرَةُ عَلَيْهِمَا) . أي تشبيه الإعادة بالابتداء في تناول القدرة لهما على السواء قال الزمخشري:" نعيد أوّل الخلق كما بدأناه، تشبيها للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء، فإن قلت: وما أوّل الخلق حتى يعيده كما بدأه؟ قلت: أوّله إيجاده عن العدم، فكما أوجده أولاً عن عدم، يعيده ثانياً عن عدم . فإن قلت: ما بال خَلْقٍ منكرا؟ قلت: هو كقولك: هو أوّل رجل جاءني، تريد أوّل الرجال، ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلاً رجلاً، فكذلك معنى أَوَّلَ خَلْقٍ: أوّل الخلق، بمعنى: أوّل الخلائق، لأن الخلق مصدر لا يجمع. ووجه آخر، وهو أن ينتصب الكاف بفعل مضمر يفسره نُعِيدُهُ وما موصولة، أي: نعيد مثل الذي بدأناه نعيده. وأول خلق: ظرف لبدأناه، أى: أوّل ما خلق، أو حال من ضمير الموصول

(٥٦) ينظر : علم البيان، عبد العزيز عتيق :١١٣ .

(٥٧) الجمان في تشبيهات القرآن : ٦٥ .

الساقط من اللفظ، الثابت في المعنى وَعْداً مصدر مؤكد؛ لأنّ قوله نُعِيدُهُ عدة للإعادة إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ أى قادرين على أن نفعل ذلك"[٥٨] .

وفي سياق الحديث عن اليوم الآخر وقيامه يؤتى بالمشبه به لغرض البيان التوضيح في سرعة أمر الساعة وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (النحل:٧٧) . تشير الآية إلى القدرة الإلهية التي تتجاوز الزمن المحسوب عند البشر فقد جاءت وصفاً لإيضاح وبيان أمر الساعة وتقريب الفكرة لأذهان منكري الميعاد، وبذلك حصل التشبيه التمثيلي لكي يبدد المستحيل عند الله تعالى، ويثبت أنَّ الله –ﷻ– اذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون لقدرته المطلقة التي أكدها في فاصلة الآية في قوله: (**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) . وقد جيء بالدال المشبه به (لمح البصر) بياناً وتوضيحاً لسرعة وقوع الساعة وقيامها كلمح البصر، هذا التشبيه الذي بيّن الله تعالى به ساعة حسم مستقبل الإنسان وفقاً لما قدمه في الحياة الدنيا، وقد سبق التشبيه علم الباري تعالى بالغيب في السموات والأرض، ثم اعقبها بالتشبيه المرسل لكي يوضح القدرة الإلهية على قيام الساعة، وبذلك أعطى الدلالة التي تشير إلى فاعلية الله اللامحدودة[٥٩] . وقد انحصر المكون الدلالي الذي ولده التشبيه في السرعة؛ لأنه حدد بالأداة التي خلقت الثنائية بين لمح البصر وسرعته. ونلحظ دقة التشبيه لاقترانه بأداة النفي والاستثناء الذي يولد الحصر لزيادة التوكيد وإبراز دلالة النص بشكل أكثر وضوحاً .

ومن المواضع الذي وُظف **المشبه به** فيها لغرض التبيين والإيضاح وما جاء في تصوير حال المعوقين عن الجهاد من منافقي المدينة وما يدور في قلوبهم من الفزع والقلق والاضطراب في قوله تعالى: ﴿**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا**﴾(الأحزاب: ١٨، ١٩) . فالآية تصور حال المنافقين في المدينة المنورة وقت النبي –ﷺ– وإعاقتهم عن نصرة الدين والمضي إليه، الذين لا يريدون أن يتحملوا نصيباً من أعبائه فهم ذو نفوس قلقة مضطربة يتنازعها عامل الخوف الذي يسيطر عليهم من المآل الفظيع المحدق بهم لو انكشف أمرهم، وبانت سرائرهم، ومن هنا فهم يرتعدون في

(٥٨) الكشاف : ٨٧٦ .

(٥٩) ينظر : التفسير البنائي للقرآن الكريم ، محمود البستاني : ٤٧٤/٢ .

حركاتهم ، وهذه الحقيقة قررها المشبه به ﴿ **كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**﴾ فقد قرر صورة من يعالج سكرات الموت، يتنازع نفسه المال المظلم والخوف العميق من الجزاء المحتوم، دون أن تكون عنده القوة أو الإرادة التي يعتمد عليها في موقفه. فصورة **المشبّه به** موحية كل الإيحاء بما كان عليه أولئك المعوقون للجهاد من ضعف في الإرادة وخيبة في المآل. ولا يخفى دقة الكلمات التي اختيرت للمشبّه به ونظمت منها صورته دون غيرها في تحقيق المعنى المراد من الآيات ، وهو بيان خورهم وجبنهم وضعفهم.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ (لقمان:٧) . ففي هذه الآية بيان لحال رجل أعرض عن سماع القرآن وتدبره ، رجل تُعرض عليه آيات الله ، وتأتيه وهو في مكانه من دون أن يسعى إليها ومع ذلك يعرض عنها ويستكبر كفراً بها ، كأن في أذنيه وقراً لا يسمع بسببهما . والتشبيهان في قوله: (**كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً**) جيء بالمشبه به (**كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا**) و (**كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً**) لتبيين صورته وإيضاح حالته لتتضح للمتلقي ، فكأن هذا الرجل المعرض عن الآيات المستكبر عنها لم يسمع أصلاً هذه الآيات؛ لأنَّ في أذنيه ثُقلاً وصمماً ، يمنع من السماع ومن كانت هذه حالته فأنى له أن يلتفت إلى هذه الآيات، أو ينتفع بما جاء منها ، والتشبيه الثاني مفسر وموضح للأول منهما أي: شبَّه الرجل الذي لا يسمع الآيات بحال من فقد السمع؛ وذلك لوجود المرض في أذنيه، وإن هذا المرض ثقيل وشديد بدليل مجيء ((كأن)) في التشبيه الثاني مشددة ثقيلة، فكأن في هذا التشديد إشارة إلى ثقل الوقر في أذنيه[٦٠] .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿**لَهُ دَعْوَةُ الحقّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** ﴾ (الرعد: ١٤) . آية تصور حال من يدعو غير الله وضياع دعوته وعدم الاستفادة منها بحال من مد يده للماء يريد أن يبلغ الماء إلى فمه. وجيء **بالمشبه به** ﴿**لَه كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ**﴾ لغرض إيضاح الصورة وبيانها قال الرماني (ت٣٨٤هـ) : "فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسّة إلى ما تقع عليه، وذلك أنّ حالة المشرك عندما يدعو آلهته فلا تستجيب له بشيء حالة لا تدركها حواس الإنسان فلما أن شبهت بحالة الذي يبسط كفّه لشرب الماء ـ وهي صفة محسوسة ندركها بأبصارنا ـ جعلها هذا التّشبيه

(٦٠) ينظر : من بلاغة النظم القرآني ، د. عبد العزيز عبد المعطي عرفة : ٢٦٦.

وكأنّها أمر محسوس مدرك بالأبصار، والجامع بين الصّورتين "الحاجة إلى نيل المنفعة والحسرة على فوات الطلبة"[٦١] .

ومن المواطن التي جاء فيها الدال المشبه به لغرض الإيضاح والتبيين أيضاً قوله تعالى: ﴿**خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**﴾(الرحمن: ١٤) . يذكّر الخطاب القرآني بنعمة من عظيمة من نعم الله –تعالى– عليهم في أنفسهم بذكر طريقة خلقهم ، والصلصال وهو الطين اليابس الذي لم يطبخ، فإنه من يبسه له صلصلة إذا حرّك ونقر كالفخار[٦٢]، والمراد بالإنسان آدم –عليه السلام– وهو أصل الجنس البشري، وفي الخطاب تشبيه خلقه سبحانه لمرحلة من مراحل الخلق التي مرّ بها آدم لآدم من طين يابس يشبه الفخار، فقد خلقه من تراب جعله طينًا، ثم حمأً مسنونا، ثم صلصالًا . والتشبيه هنا(مرسل مجمل) وأركانه كالآتي: المشبه هو(الصلصال) والمشبه به (الفخار)، وأداة التشبيه هي (الكاف)، ووجه الشبه هو(اليباس)، وأوثر التعبير بهذا **المشبه به** (الفخار) في عملية خلق الإنسان لتبيين طريقة الخلق وإيضاحها؛ لأنَّ فيه تبيين وإيضاح وإبرازٌ للمعنى الخفي في صورة محسوسة واضحة جلية تطمئن إليها النفس وتأنس لها، وبهذا حقق التشبيه "روعة وجمال، وموقع حسنٌ في البلاغة: وذلك لإخراجه الخفي إلى الجلي، وإدنائه البعيد من القريب، يزيد المعاني رفعة ووضوحاً ويكسبُها جمالا وفضلا، ويكسوها شرفا ونُبلا، فهو فن واسع النطاق، فسيح الخطو، ممتدُ الحواشي مُتَشعب الأطراف مُتوعر المسلك، غامض المدرك، دقيق المجرى غزير الجدَوى"[٦٣]، وأفاد التشبيه في ذكر خلق الإنسان بيان لنعمة الله –عز وجل– وفضله عليه إذ نقله من الصلصال إلى ما هو عليه الآن.

ومن الآيات التي جاء المشبه به للتوضيح والبيان أيضاً قوله تعالى:﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾(التوبة:١٠٣)، فقد حقق المشبه به(سكن لهم) توضيح وبيان لدعاء النبي –صلى الله عليه وسلم–، والتشبيه هنا بليغ إذ جعل الصلاة نفس السكن والاطمئنان مبالغة وأصله كالسكن وبحذف الأداة ووجه الشبه أصبح التشبيه بليغا "لما فيه اختصار من جهة وما فيه من تصور وتخيل من جهة أخرى لأنَّ وجه الشبه إذا حذف ذهب الظن فيه كل مذهب وفتح باب التأويل وفي ذلك ما يكسب التشبيه قوة وروعة وتأثيرا "[٦٤]، وبذلك ارتكزت دلالته على علاقة مزدوجة بين الدال والمدلول من

(٦١) النكت في إعجاز القرآن ، الرّماني : ٨٣ .

(٦٢) ينظر: جامع البيان ، الطبري: ٤/ ٣٢٧.

(٦٣) جواهر البلاغة : ٢١٩ .

(٦٤) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب: ٢/١٨٠.

جهة وبين المتلقي من جهة أخرى مما زاد المعنى رسوخاً واتساعاً. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (النحل:١٠٤)، أي انَّ ابراهيم -عليه السلام- بمفرده كالأمة والجماعة وذلك لجمعه أوصاف الكمالات التي عرفت في الخلق[٦٥].

❖ رابعاً. الترغيب والترهيب:

من خصائص الصورة التشبيهية باستعمال **مشبه به** مخصص دون غيره هو الترغيب والترهيب ، يقول ابن الأثير: "وأما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء، فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه، أو التنفير عنه"[٦٦].

ومن مواضع مجيء **المشبه به** للترغيب والتحبيب[٦٧] ما جاء في الترغيب بالإنفاق والصدقة في سبيل الله-عز وجل- وذلك في قوله تعالى: ﴿**مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (البقرة: ٢٦١). في هذه الآية الكريمة ترغيب في الإنفاق في سبيل الله، وذلك ببيان مضاعفة أجر المنفق أضعافاً مضاعفة وتبدأ الآية الكريمة بالدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله ولكنها لا تعمد في دعوتها إلى أسلوب الأمر والإلزام؛ لأن النفس الإنسانية بطبيعتها تأبى الأوامر والنواهي، بل إلى أسلوب الترغيب واستجاشة المشاعر والانفعالات بتصوير المعنى في صورة شاخصة تستهوي الوجدان وتستميل القلوب[٦٨]. والتشبيه هنا (تمثيلي) وأركانه كالآتي الدال المشبه هو (الصدقة) و الدال المشبه به (الحبة التي يبارك فيها)، وأداة التشبيه هي (كمثل)، ووجه الشبه هو(الزيادة والبركة والنماء).

وأوثر التعبير **بالمشبه به** ﴿**حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ**﴾ دون غيره ترغيباً في الانفاق والتصدق ، إذ فيه تصوير لمضاعفة الإنفاق في سبيل الله في صورة حبة تلقى في تربة صالحة للزراعة فلا تلبث أن تكون زرعاً نضيراً سرعان ما تثمر سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، ثم إن هذه السنابل لطيبها

---

(٦٥) ينظر: الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم ، محمد حسين سلامة: ١٥٧ .

(٦٦) المثل السائر: ١٢٤.

(٦٧) ينظر أيضاً على سبيل التمثيل:(البقرة:١٧-٢٠) و(البقرة:٢٦٤) و(الأنعام:١٢٥) و(التوبة:٦٩) و(يونس:٢٤) و(هود:٢٤) و(النور:٣٩-٤٠) و(الاحقاف:٣٥) و(يس:٣٩) و(الصف:٤) و(الحديد:٢٠و٢١).

(٦٨) ينظر: أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجاً، د. عبد الغني محمد سعيد بركة: ١٩٧.

وطيب معدن أرضها تراها مليئة بالحب ففي كل سنبلة مائة حبة، ففي الآية تشبيه تمثيلي طرفاه الهيئة المنتزعة من نفقة المنفق وما يترتب عليها من الأجر والثواب العظيم، والهيئة الحاصلة من بذرة الحب تزرع في التربة الصالحة فتنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة[٦٩] . فالدال المشبه في هذه الآية " حال من ينفق قليلاً في سبيل الله ثم يلقى عليه جزاء جزيلاً ، و الدال المشبه به حال من بذر حبة فأنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، ووجه الشبه هو صورة من يعمل قليلاً فيجنى من ثمار عمله كثيراً" [٧٠] ، أما غرض التشبيه فهو الترغيب بالنفقة مع بيان مقدار حال المشبه في الزيادة والنماء، ويتحدد هذا الغرض في تجسيد قوة المشبه وضعفه وزيادته ونقصه وسموه وانخفاضه واتساعه وضيقه وما إلى ذلك من الصفات التي تخضع للمقاييس وتستجيب للتحديد ، وملاك هذا الغرض أن يكون المشبه معروفاً لدى المخاطب في صفته بشكل عام، ويأتي المشبه به لتحديد هذه الصفة، فمجيء المشبه به حدّد مقدار الزيادة والمضاعفة التي تحدث بالإنفاق في سبيل الله تعالى . لزيادة الاعتناء بالإنفاق والترغيب فيه[٧١] . وقد أظهر لنا المشبه به أيضاً في سياق هذا التمثيل بين طرفين الطرف الأول: (الصدقة)، والطرف الثاني: (الحبة المباركة) والمقارنة بينهما رسمت لنا صورة مؤثرة في ذهن السامع او المتلقي؛ " لأنَّ الصورة هي إحداث العلاقة بين ظاهرتين . . . لاوجود لهما في عالمنا الواقعي بحيث تنتج ظاهرة ثالثة"[٧٢] .

وقريب من هذه الآية نقرأ قوله تعالى: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ (البقرة : ٢٦٥) . فالخطاب القرآني يُبين حال المنفقين أموالهم طلباً لمرضاة الله -ﷻ- بأن نفقتهم كثرت أو قلت تؤتي ثمارها حيث يضاعف الله لهم الأجر والثواب كما يضاعف المطر الغزير أو القليل ثمر الجنة. وفي الآية تشبيه تمثيلي وأركانه كالآتي الدال المشبه هو (النفقة) و الدال المشبه به (الجنة الطيبة المباركة)، وأداة التشبيه هي (كمثل)، ووجه الشبه هو(الهيئة الحاصلة من مجموع أشياء تكامل بها تضعيف المنفعة)، إذ شبهت النفقة ابتغاء مرضات الله بجنة بالربوة عالية وهي البستان المرتفع من الأرض نقية التربة ، إذا أصابها الغيث الكثير النافع فشربت منه ما تزاد به خصوبة فأعطت غلتها ضعفي ما تعطي إذا كان بأرض

(٦٩) ينظر: الكشاف: ١ / ٣٩٣؛ والتحرير والتنوير: ٣ / ٤١ .

(٧٠) علم البيان : ٨٨ .

(٧١) ينظر: أسلوب الدعوة القرآنية: ١٩٧ .

(٧٢) دراسات في علوم القرآن، محمود البستاني : ٣٩٢ .

مستغلة ، أو مرتين في كل سنة واحدة وتركت الباقي ينحدر إلى القيعان، فإذا لم يصبها الغيث الكثير أصابه الطل وهو الغيث اللين الذي يكفيها ويرويها فهي لا تظمأ أبداً، وهي مخصبة في كل حال نامية مثمرة[٧٣]. وبهذا المشبه به في جملة التشبيه التمثيلي أكسب الآية بلاغة عالية وصورة ثرية يقول العلامة بديع الزمان النورسي (ت١٣٧٩هـ): " لقد أكثر القرآن الكريم من التّمثيلات إلى أن بلغت الألف، لأنّ في التّمثيل سراً لطيفاً وحكمة عالية، إذ به يصير الوهم مغلوباً للعقل، والخيال مجبوراً للانقياد للفكر وبه يتحول الغائب حاضراً، والمعقول محسوساً، والمعنى مجسماً، وبه يجعل المتفرق مجموعاً، والمختلط ممتزجاً، والمختلف متحداً، والمنقطع متصلاً، والأعزل مسلّحاً . . .الكلام البليغ ما استفاد منه العقل والوجدان معاً، فكما يتداخل إلى العقل يتقطر إلى الوجدان أيضاً، والمتكفل لهذين الوجهين التّمثيل، إذ هو يتضمن قياساً وينعكس به في مرآة الممثل القانون المندمج في الممثل به، فكأنّه دعوى مدلّل"[٧٤].

وقد حقق **المشبه به**﴿**جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ**. . .﴾ ترغيب في النفقة والصدقة وفيه تصوير لحال المنفق، فقلبه عامر بالإيمان، ينفق ماله "ابتغاء مرضات الله" وينفقه عن ثقة ثابتة في الخير نابعة من الإيمان، وقلب المؤمن تمثله جنة خصبة عميقة التربة أصابها وأحياها مطر غزير أو طل خفيف يزيدها حياة ونماءً وخصوبة، كذلك تحي الصدقة قلب المؤمن فيزكو ويزداد صلة بالله، ويزكو ماله ويضاعف له الله ما يشاء[٧٥]. وحين ننظر في عناصر الصورة التشبيهية نجدها مستمدة من الطبيعة ولعل ذلك هو سر جمالها وتأثيرها، فهي مكونة من الجنة والربوة العالية والوابل والطل والثمار اليانعة[٧٦].

ومن المواضع التي جاء فيها الدال **المشبه به** للترغيب أيضاً ما جاء في الترغيب بالجنة فيقوله تعالى: ﴿**وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (آل عمران: ١٣٣) على طريقة التشبيه البليغ وأركانه كالآتي المشبه هو (عرض الجنة) والمشبه به (عرض السماء والأرض)، وأداة التشبيه هي محذوفة، ووجه الشبه هو(العرض) . وافتتاح الآيات بفعل الأمر چ ک چ يُرغّب النفوس ويحثُّها على الإيمان والطاعة التي توجب المغفرة والجنة ، وفيه استعارةٌ تصريحيّةٌ، إذ شبّه–لأ– مبادرتهم إلى الطاعات بمسارعة الفرسان وسباقهم في الميدان تنبيهاً على المبالغة

(٧٣) ينظر: التصوير البياني: ١٠٠ –١٠٣.

(٧٤) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ، بديع الزمان النورسي: ١١٦– ١٢١.

(٧٥) ينظر: في ظلال القرآن ، سيد قطب : ١ / ٣٠٦.

(٧٦) ينظر: أصول البيان العربي، د .محمد حسين الصغير : ٨٤.

في الإيمان وتحصيل الأعمال الصالحة[٧٧] . وقُدّمت المغفرة على الجنة ؛ لأنَّها سبب دخولها ، ونُكّرت للدلالة على عظمها ، وأوثر التعبير بالربّ مع إضافته إلى ضمير المخاطبين چگچ لحثهم على طاعة خالقهم ومربيهم وصاحب نعمتهم . وأفاد هذا التشبه الترغيب وتقريب الصورة إلى الأذهان ، وإلا فالجنّة أكبر وأعظم ممّا يتصوره الخيال ، وفيه أيضاً تشويقٌ إلى الجنَّة ببيان حسن صفتها وعظيم سعتها[٧٨]، وليس في ألفاظ الإنس والجن أبلغ من هذا التعبير في الإخبار عن عظمها، قال البيضاوي-/-(ت٧٩١هـ) : "إذا كان العرض كذلك فما ظنُّك بالطول"[٧٩] . وأوثر التعبير بالفعل (أُعِدَّتْ) مع بنائه للمفعول للدلالة على عظم هذا الإعداد . ومثل هذه الآية جاء قوله تعالى: ﴿**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ (الحديد:٢١) .

وكما يؤتى **بالمشبه به** لغرض الترغيب يؤتى به للترهيب من ذلك الترهيب من الركون إلى الدنيا في قوله تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً**﴾(الكهف: ٤٥) . تبين الآية الكريمة حقيقة الحياة الدنيا وسرعة فنائها وزوالها بتصويرها بالماء الذي أنزله الله من السماء فاختلط به نبات الأرض حتى إذا تكاثر وترعرع وتكاثف أصبح هشيماً محطماً تطيره الرياح فتفرقه وتنشره في كل مكان فلا ينتفع به وكان الله على كل شيء مقتدراً . وفي البيان القرآني تشبيه تمثيلي وأركانه كالآتي الدال المشبه هو (حال الحياة الدنيا) و الدال المشبه به (حال الأرض في هلاكها بعد نضارتها)، وأداة التشبيه هي (الكاف)، ووجه الشبه هو(الزوال والتلف والهلاك)، فليس المراد تشبيه حال الدنيا بالماء بل المراد تشبيه حالها في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات بعد نزول الماء شديد النضرة والإخضرار ثم يهيج فتطيره الرياح وتنشره في كل مكان فلا ينتفع به كأن لم يكن[٨٠] . وهذه الآية فيها تصوير رائع للحياة في بدايتها ونهايتها إذ تبدو كالنبات الذي ينمو ثم يشتد على سيقانه ويقوى عوده حيث تشد أزره خصوبة الأرض ويحييه ماء السماء فإذا

(٧٧) ينظر: حاشية القونوي علي تفسير الإمام البيضاوي، القونوي : ١٨ / ٤٦٥.

(٧٨) ينظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، ابن أبي الإصبع المصري :١٦٠.

(٧٩) أنوار التنزيل : ٥ /٣٠٢.

(٨٠) ينظر: الكشاف: ٢ / ٤٨٦ ، البحر المحيط: ٦ / ١٢٦.

انقطع هذا الماء ذوت نضرته وتناثرت أوراقه فأصبح هشيماً تذره الرياح. وواضح هنا ما اوجزه التشبيه من صور كثيرة متداخلة عندما بين لنا انقلاب حال الدنيا كانقلاب حال هذا النبات، وبهذا حقق **المشبه به** (**مَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً**....) ترهيباً من الركون إلى الدنيا وتزهيداً فيها وترغيباً بالآخرة، وحقق لنا أيضاً إيضاح المبهم وإظهار الخفي وجلاء الملتبس حتى لاتظهر الصورة غامضة في ملامحها مختلطة في ظلالها، وقد سمّاه البلاغيون بالتشبيه التمثيلي فهو تشبيه الحياة الدنيا وما فيها من زخارف تعجب وتثير المتلهي برؤيتها والمستمتع بزينتها حتى إذا أفاق من عمايته وجد أنَّ ما كان يستمتع به باطل لا حقيقة[٨١].

ومن مواضع الاتيان **بالمشبه به** للترهيب أيضاً الترهيب من آكل الربا وذلك في قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾(البقرة: ٢٧٥) ، فهذه تعرض هذه الآية الكريمة، وهي صورة فنية رائعة تفوق الخيال، ففيها تمثيل لآكل الربا، الذي يمتص دماء الكادحين، بالشخص الذي يتخبطه الشيطان من الجنون، فهو يمشي ويسقط، ويترنح في مشيته، ويهذي في كلامه[٨٢]. والتشبيه هنا تمثيلي أيضاً وأركانه كالآتي الدال المشبه هو (قيام آكل الربا) و الدال المشبه به (قيام الشخص المصروع الذي يتخبطه الشيطان)، وأداة التشبيه هي (الكاف)، ووجه الشبه هو(التخبط الاضطراب)، أي: يقوم قياماً يشبه قيام المصروع بمس الشيطان في صورته وهيئته من خلط حركاته وتخبطه نتيجة لما يستفزه من الطمع.

ولا يخفى وظيفة المشبه به﴿ **كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ** ﴾ في الترهيب من أكل الربا ببيان صورته عند قيامه من القبر عند البعث متخبطاً خبلاً. وقوله تعالى:(الذين يأكلون الربا) أي: يأخذونه والتعبير عنه بالأكل لما أنه معظم ما قصد به ولشيوعه في المطعومات مع ما فيه من زيادة تشنيع لهم وهو الزيادة في المقدار أو في الأجل حسبما فصل في كتب الفقه. و (لا يقومون) أي: من قبورهم إذا بعثوا (إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان) أي إلا قياماً كقيام المصروع وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان، فيصرع والخبط الضرب بغير استواء خبط العشواء[٨٣].

(٨١) ينظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه : ٥٠٨/٤.

(٨٢) ينظر: الإبداع البياني: ٥٣.

(٨٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: ١ / ٢٦٦.

و(من المس) أي الجنون وهذا أيضاً من زعامتهم أن الجني يمسه فيختلط عقله فلذلك يقال جن الرجل وهو متعلق بما قبله من الفعل المنفي أي لا يقومون من المس الذي بهم بسبب أكلهم الربا فيكون نهوضهم وسقوطهم كالمصروعين لا لاختلال عقولهم بل لأن الله تعالى أربى في بطونهم ما أكلوا من الربا فأثقلهم فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون ، تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف. وفي الآية تشبيه ثانٍ ونوعه من المقلوب في قوله تعالى: ﴿ **قَالُوْا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا** ﴾، وأركانه كالآتي الدال المشبه هو (البيع) وهو الأصل ، و الدال المشبه به هو (الربا)، وهو الفرع، وأداة التشبيه (مثل) ، ووجه الشبه (المشابهة والمماثلة) ، وفي هذا التشبيه دلالة على المبالغة وبيان لاعتقاد الكفار في حلية الربا وجعلهم إياه أصلاً للبيع ، فقد " بلغ من اعتقادهم في حل الربا أن جعلوه أصلاً يقاس عليه فشبهوا به البيع"[٨٤] . قال الزمخشري : " فإن قلت :- هلا قيل إنما الربا مثل البيع؛ لأن الكلام في الربا لا في البيع فوجب أن يقال : أنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه ، وكانت شبهتهم أنهم قالوا : لو أشترى الرجل ما لا يساوي إلا درهماً بدرهمين جاز ، فكذلك إذا باع درهماً بدرهمين ! ! قلت : جيء به على طريق المبالغة وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً في الحل حتى شبهوا به البيع ، وقوله: ﴿**وأحل الله البيع وحرّم** الربا﴾ إنكار لتسويتهم بينهما ودلالة على أن القياس يهدمه النص لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه"[٨٥] .

وجاء المشبه به لغرض الترهيب من أعمال أخرى نذكر على سبيل التمثيل الترهيب من النفاق وبيان حال أصحابه وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**﴾ (النور: ٣٩-٤٠) وهل هناك أشد رهبة وظلمة من أمواج بحر لجي بعضها فوق بعض يكتنفها سحاب مظلم وهذا الانسجام في التّنسيق بين الكلمات ينتقل بك إلى خضم لا تكاد تدرك فيه نفسك فتغمرك الخشية من جانب، ويصور هؤلاء الضّالين متخبطين في عالم أسود، لا ينبلج له صبح ولا تطلع فيه الشّمس، كما أنّ كلمات **المشبّه به** المتّسقة المترابطة توحي بالنّهاية المحتومة التي تحيط بهؤلاء، وبقلوبهم الكالحة التي لا تنبض بالرحمة، ولا تلين للحقّ[٨٦] .

(٨٤) صفوة التفاسير ، الصابوني: ١ / ١٦٢ .

(٨٥) الكشاف : ٤٣٥ .

(٨٦) ينظر: نظرات في التّمثيل البلاغي، محمود سيد شيخون: ٢٧٥ .

ومثله الترهيب من الكفر والعمل السيء في قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ**﴾ (سورة إبراهيم:١٨) فالقرآن الكريم يتخذ من **المشبه به** (الرّماد) وهو عنصر من عناصر الطّبيعة مثلاً لأعمال الكفار الضّائعة ترهيبا منها، إذ يمثل أعمالهم في ضياعها وذهابها إلى غير عودة بالرّماد الهشّ الذي تذروه الرّياح وتذهب به بدداً إلى حيث لا يتجمع أبداً، ثمّ يبلغ قمة التّأثير حينما يضمّ إلى الرّماد الرّيح الشّديدة العاتية، إنّ الرّماد لا يقوى على الصمود أمام قوى الرّياح العاتية العارمة، إنّه يتحلل وتتفتت ذراته، ويصبح لا شيء في دنيا العدم وأعمال الكفار مهما جلت وكثرت كهذا الرّماد الذي انعدم وتلاشى في جوف الرّيح الهادرة. ومثلها قوله تعالى مرهباً من الكفر أيضاً: ﴿**وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [(الحج: ٣١)، فالمشبه به ﴿ **خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ له دلالة قوية زادت من قوة التّشبيه في هذا المقام الدال على الترهيب لما دلت عليه من سرعة في الاستلاب وقوة في التنفيذ، بحيث لا تدع له فرصة في الإفلات أو النجاة بما لا تقوم لفظة مقامها في هذا الموضع. فهو يصور هذا الساقط من السّماء وهو يسقط بسرعة واندفاع مصدراً أصوات الاستغاثة والعون ولكن مصيره الموت الأكيد والنهاية المحتومة. ومما عضد هذا المعنى اجتباء ألفاظ المشبه به وهي (خر) وأصلها من خرير المياه وخرير العقاب، وهو الصوت الذي يحدثانه عند السقوط من أعلى إلى أسفل ثم استعيرت للحجر الذي يهوي من أعلى إلى أسفل مصدرا صوتا، ثم إن من معاني الخرور الموت كما يقال: خر فلان أي مات[٨٧]. ومثلها الفعل "فَتَخْطَفُهُ" فأصل الخطف الأخذ في سرعة واستلاب، وخطفه وتخطفه بمعنى واحد[٨٨].وهكذا نجد في هذه الآيات كيف يؤتى بالمشبه به في جميعها من الطّبيعة التي هي ميدان التشبيهات القرآنية ومنها استمدت حيويتها وتجددها الدائمين.

❖ خامساً. التهويل والتعظيم:

في كثير من المواضع يؤتى بالدال **المشبه به** لغرض تهويل صورة المشبه وتعظيمها في نفوس المتلقين، ويكثر ذلك في سياقات متعددة من ذلك سياق مشاهد اليوم الآخر، إذ يكثر المجيء بالمشبه به لهذا

(٨٧) ينظر: لسان العرب: ٤ : ٢٣٤. مادة: (خرر)

(٨٨) ينظر: لسان العرب: ٩ : ٧٥. مادة (خطف)

الغرض من ذلك[٨٩] قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا** ﴾ (الكهف:٢٩) ، تعرض هذه الآية زاوية من زواية جهنم والعذاب فيها ، ومما زاد هذا التهويل من العذاب فيها استعمال **المشبه به** (**المهل**) الذي أضاف صورة مخيفة للعذاب فيها، والمهل: ماء حار يشوي الوجوه كالرصاص المذاب أو كعكر الزيت من شدة حرارته ، والناظر في الآية الكريمة يرى أن ألفاظ الآية من المشبه وما قبله﴿ **وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ** ﴾ ليس فيها هذا التهويل لولا حضور المشبه به (**المهل**) فالاستغاثة والماء ربما تعرض جانباً قليلاً من الراحة ولكن عند مجيء المشبه به المهل قلب هذه الصورة احتراساً من هذا الظن إلى عذاب فوق عذاب وألم فوق ألم ، بتسميته أعلى أنواع العذاب إغاثة، وأي إغاثة هذه التي هي كالمستقذرات التي تغثى منها النفس وتتألم وتنفر، وبه جعل الإغاثة ضد الإغاثة نفسها عند الطلب [٩٠]، والتشبيه مرسل وأركانه كالآتي: المشبه (**الماء**) المشبه به (**المهل**) وأداه التشبيه (**الكاف**) ووجه الشبه (**شدة الحرارة والهلاك**). وحقق المشبه به وظيفته البيانية والدلالية في هذا السياق لأنه "وان كان عنصراً بيانياً يكسب النص روعة واستقامة وتقريب فهم، إلا أَنَّه يعود ضرورياً لأداء المعنى القرآني متكاملاً من جميع الوجوه"[٩١]. فقد صوّر **المشبه به** درجة العذاب من درجة حرارة الماء الذي يشربونه والذي بمجرد قربه من وجوههم تسقط فروة الوجه[٩٢]. فالتركيب التشبيهي قائم على تراسل ماهيات المشبه والمشبه به والذي يدرك في اللوحة بحاسة اللمس، وهي حاسة مهمة؛ لأنها "تتيح لنا دائماً أن نشعر بإحساسات فنية من كل نوع حتى تستطيع أن تنوب مناب البصر إلى حد بعيد ، ولئن كانت حاسة اللمس لا نستطيع إدراك الألوان فأنها تطلعنا على ناحية جمالية لا تستطيع العين وحدها أن تطلعنا عليها"[٩٣].

ومما عمق صورة العذاب تهويلاً وتعظيماً الاستعارة في قوله: ﴿**يُغَاثُوا** ﴾ فالإغاثة مستعارة للزيادة مما استغيث من أجله على سبيل التهكم والاستهزاء بهم ، وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضده[٩٤].

(٨٩) ينظر أيضاً على سبيل التمثيل: (المائدة:٣٢) و(الكهف:٩٦) و(الحج:٤٧) و(الشعراء:٦٣و(النمل:١٠) و(لقمان:٣٢) و(المرسلات:٣٢-٣٤) و(القمر:٧و٣١) و(الرحمن:٣٧)و(القارعة:٥)و(الدخان: ٤٥) و(محمد:٢٠) .

(٩٠) ينظر: إعراب القرآن وبيانه ، محي الدين الدرويش: ٤٨٤/٤ .

(٩١) العمدة في محاسن الشعر ونقده ، ابن رشيق القيرواني : ١/ ٢٨٤ .

(٩٢) ينظر : الجمان : ٣٤٥ .

(٩٣) فن التشبيه ، علي الجندي : ٥١ – ٥٢ .

(٩٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠٨/١٣.

ومما عمقها أيضاً استعمال الفعل المضارع الدال على الاستمرار ﴿**يَشْوِي الْوُجُوهَ**﴾ ووصف هذا المهل بأنه ﴿**بِئْسَ الشَّرَابُ**﴾.

وقريب من هذا في الإتيان بالمشبه به لغرض التهويل ما جاء في بيان شجرة الزقوم وذلك في قوله تعالى: ﴿ **أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ**﴾ (الصافات:٦٢-٦٥). تعرض الآيات الكريمات لنزل العاصين المكذبين بيوم الدين في الجحيم، نزل مهين لهم طعامهم فيها زقوم، مشهد مهول مخيف، ومما زاد تهويله الإتيان **بالمشبه به** (رؤوس الشياطين) لتهويل هذه الشجرة وثمرتها. قال الشوكاني (ت١٢٥٠هـ):" أصلُها في قعرِ جهنَّمَ، وأغصانها تُرفَعُ إلى دَرَكاتها، ثمّ قالَ ﴿ **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ** ﴾ [الصافات: ٦٥] أي: ثمرُها، وما تحمِلُه كأَنَّه في تناهي قُبحِه، وشناعةِ منظرِه رؤوسُ الشياطينِ، فشبَّهَ المحسوسَ بالمُتَخَيَّلِ، وإن كان غيرَ مرئيٍّ، للدلالةِ على أَنَّه غايةٌ في القُبحِ، كما تقولُ في تشبيهِ من يستقبحونه: كأَنَّه شيطانٌ، وفي تشبيهِ من يستحسنونه: كأَنَّه مَلَكٌ، كما سبق أن ذكرنا...وقيل الشياطين حيات لها رؤوس وأَعْرَافٌ، وَهِيَ مِنْ أَقْبَحِ الْحَيَّاتِ وَأَخْبَثِهَا، وَأَخَفِّهَا جسما، وقيل إن رؤوس الشَّيَاطِينِ اسْمٌ لِنَبْتٍ قَبِيحٍ مَعْرُوفٍ بِالْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ الْأَسْتُنُ، وَيُقَالُ لَهُ الشَّيْطَانُ"[٩٥]. ومما سبق يتبين لنا كيف حقق المشبه به وظيفة التهويل والتخويف لهذه الشجرة وثمرتها عن طريق التشبيه المرسل وأركانه كالآتي: المشبه (شجرة الزقوم) المشبه به (رؤوس الشياطين) وأداة التشبيه (كأن) ووجه الشبه (القبح) ، ولا يخفى ما لهذا التشبيه من تهويل وإدخالِ الرَّهبةِ والهَلَعِ والخوفِ إلى القلوبِ فقد شبهه بـ(**رؤوسِ الشياطينِ**) دلالةً على تناهيهِ في الكراهيَةِ وقبحِ المنظرِ؛ لأنّ الشيطانَ مكروهٌ مستقبحٌ في طباعِ الناسِ، لاعتقادِهم أَنَّه شرّ محضٌ لا يخالطه خيرٌ، فيقولون في القبيحِ الصورةِ: كأَنَّه وجهُ شيطانٍ، كأَنَّه رأسُ شيطانٍ، وإذا صوَّرَه المُصَوّرون: جاؤوا بصورتِه على أقبحِ ما يُقَدَّرُ وأهولِه[٩٦].

وللجاحظ (ت٢٥٥هـ) كلامٌ دقيقٌ في بيانه لإيثار هذا **المشبه به** دون غيره بقوله فيما معناه ولم يرَ الناس شيطاناً قط على صورة ولكن لما كان اللّه تعالى قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجه وكراهيته وقد أجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك رجع بالإيحاش والتنفير وبالإخافة والتقريع إلى ما قد جعله اللّه في طباع الأولين والآخرين وعند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم ... ومخرج الكلام يدل على

---

(٩٥) فتح القدير : ٣٠٨/١٣.

(٩٦) ينظر : الكشاف : ٤٦/٤.

أن التخويف بتلك الصورة والتفزيع منها، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره فكيف يكون الشأن كذلك والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه أو صوّره لهم واصف صدوق اللسان بليغ في الوصف ونحن لم نعافيها ولا صوّرها لنا صادق، وعلى أن أكثر الناس من هذه الأمم التي لم تعايش أهل الكتابين وحملة القرآن من المسلمين، ولم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك، ولا يقفون عليه، ولا يفزعون منه فكيف يكون ذلك وعيداً عاماً؟ قلنا: وإن كنا نحن لم نر شيطاناً قط ولا صور رؤوسها لنا صادق بيده ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين أحدهما أن يقولوا: لهو أقبح من الشيطان، والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطانا على جهة التطيّر له كما تسمى الفرس الكريمة شوهاء، والمرأة الجميلة صمّاء وقرناء وخنساء وجرباء وأشباه ذلك على جهة التطيّر له، ففي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح[٩٧].

ومن المواطن التي جاء فيها **المشبه به** ليحقق غرض التعظيم والتهويل ما جاء في بيان الطوفان زمن سيدنا نوح –عليه السلام– وذلك في قوله تعالى: ﴿**وهي تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ**﴾ (هود: ٤٢). فالآية ترسم لوحة عظيمة لنجاة سيدنا نوح–عليه السلام– ومن معه على السفينة يوم الطوفان الذي غطّى الأرض عندما دعا –عليه السلام– على المعرضين الكافرين من قومه. والناظر في الآية يلحظ كيف رسم **المشبه به** ﴿**كَالْجِبَالِ**﴾ صورة عظيمة مهولة لهذا الطوفان الذي غطّى الكرة الأرضية ولعلو الأمواج المتلاطمة فيه فهي ليست كالأمواج العادية بل هي مرتفعة عالية جداً كل موجة منها كالجبل الشاهق تراكماً وارتفاعاً وتتابعاً ، والموج : ما يرتفع فوق الماء عند اضطرابه، قال ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) : "شبهه بالجبال في عِظَمه وارتفاعه، ويقال: إن الماء أرتفع على أطول جبل في الأرض أربعين ذراعاً، ويروي خمس عشرة ذراعاً . وذكر بعض المفسرين أنه ارتفع نحو السماء سبعين فرسخاً من الأرض". والتشبيه في الآية مرسل مجمل وأركانه كالآتي المشبه (**الموج**) المشبه به (**الجبال**) ، أداة التشبيه (**الكاف**) وجه الشبه (**العلو والارتفاع والضخامة**). والتشبيه المجمل يحتل أسبقية بلاغية في الحيز الدلالي ؛ لأنَّ حذف وجه الشبه يترك مجالاً للصفة الجامعة بين(المشبّه والمشبّه به) في الولوج الى مرحلة معنى المعنى الذي هو المستوى الفني الذي يعد التشبيه من المرتكزات الأساسية في إظهاره، إذ إنّ من مرحلة

(٩٧) ينظر: الحيوان:٤/٢٨٠ و ٦/٤٢٦.

المعنى يتكون علم المعاني ومن مرحلة معنى المعنى يجئ علم البيان[٩٨].

والمتنعم في هذا **المشبه به** (**الجبال**) يجد السر في إيثاره دون غيره ، فهو أخذ من الطبيعة مادة أولية لتكوينه من خلال التناسق مع سياق الموقف ثم أنَّه عندما يكون في المحسوسات يكتنز تأثيره في النفس أكثر من المعقولات ولعل أحد أسباب تأثير التشبيه في النفس نقلها من المعقول إلى المحسوس ومن الفكرة إلى الفطرة ومن الغموض إلى البديهة، خاصة اذا ما علمنا أنَّ صلة النفس بالمحسوسات أسبق من صلتها بالمعقولات. **فالمشبه به** هنا لم يقف عند إظهار المشابهة بين الموج والجبال في الضخامة والارتفاع فحسب ؛ بل " تجاوزها إلى المماثلة النفسية ، وتعمقتها حتى أضفت عليها حياة شاخصة ، وألواناً ناطقة ، وأصواتاً مسموعة، وحركة متجددة ، فانقلب المعنى الذهني إلى هيئة أو حركة ، وتجسمت الحالة النفسية في لوحة أو مشهد ، وليس هذا فحسب بل أبرز جمال التشبيه القرآني ما فيه من إبداع في العرض ، وجمال في التنسيق ، وروعة في النظم والتأليف، وجرس في الألفاظ يدل على صورة معانيها"[٩٩]. فتشبيهات القرآن الكريم أياً كان وجهها صور بيانية تتضح منها الحقائق الظاهرة ، والمعاني العاطفة ، كأنها أمور محسوسة مرئية خاصة إذا كان المشبه به أمرا محسوسا ، ومن المعلوم أنَّ "إذا كان التشبيه بأمر محسوس كانت الصورة البيانية كأنها مرئية واضحة ، فمفردات الصورة تعطينا أبعاد المشهد في تكوين يحتوي عناصر المتعة والجمال"[١٠٠].

ومن ذلك أيضاً الإتيان **بالمشبه به** في تصوير حال الجبال وزوالها يوم القيامة وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**﴾(النمل:٨٨)، آية كريمة تعرض لما يحل بالجبال يوم القيامة إذ تراها يامحمد -ﷺ- رأي العين ساكنة حينها، والحال أنها تمر وتمشي مثل مرور السحاب التي تسيّرها الرياح سيرًا سريعًا، حتى تقع على الأرض فتسوَّى بها متفتتة. ومما زاد هذا التهويل والتعظيم مجيء المشبه به ﴿ مَرَّ السَّحَابِ﴾ لبيان سير هذه الجبال العظيمة عند قيام الساعة متحركة لزوالها. وجاء التشبيه هنا بليغاً خالياً من الأداة ووجه الشبه أي: تمر كمر السحاب في السرعة فهي تسير سيراً حثيثاً مثل سير السحاب إذ "تجمع الجبال فتسير كما تسيّر الريح السحاب فاذا نظر اليها الناظر حسبها واقفة ثابتة في مكان واحد"[١٠١] وجاء تشبيه السحاب في حركتها

(٩٨) ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، إحسان عباس : ٤٢٩ .

(٩٩) الصورة الأدبية في القرآن الكريم ، د. صلاح الدين عبد التواب : ٤٥.

(١٠٠) من جماليات التصوير في القرآن الكريم ، محمد قطب عبد العال : ٨١.

(١٠١) الكشاف: ٣٧٤/٣.

واضح الصورة في نطاق المحسوس المألوف إذ اوضح لنا قدرة الله تعالى اللامحدودة في التحكم بالكائنات من خلال السعة التي اكتنزتها المماثلة بين جمود الجبال ومرّ السحاب، هذا التماثل خلق لنا عمقاً في المعنى ونمواً في الاحساس التصوري الذي يولد فائضاً معنوياً يزيد عن منطوق النص الصريح في الآية. ومثل هذا الغرض في تصوير الجبال وما يحل بها جاءت خطابات قرآنية أخرى يصور المشبه به شدة ما تؤول إليه الجبال بعد تسييرها مما يزيد مشهد التهويل والتفخيم وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً**﴾(الواقعة:٥-٦)، فالجبال إذا سُيّرت فإنّما تُسيّر تسييراً يُفتتها ويفرّقها، وهذا ما أكّده التشبيه البليغ المستفاد من التفريع ﴿**فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً**﴾، وأركانه كالآتي الدال المشبه هو (الجبال) و الدال المشبه به (الهباء المنبث)، وأداة التشبيه محذوفة، ووجه الشبه هو(التفتت)، أي أصبحت الجبال بعد هذا البسّ كالغبار المنثور المتطاير، تشبيهٌ زاد من تهويل هذا اليوم وفظاعته.

وفي موضعٍ آخر نجد آية تعمق معنى التهويل لشأن القيامة، وهو يتناسب مع سياق أهوال ذلك اليوم، هولٌ ماديٌّ يشترك فيه الإنسان والجماد، وهذا ما تدلّ عليه الصورة التشبيهية في قوله تعالى: ﭽ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ (القارعة:٤-٥)، فالجبال الرواسي بعد هذا الرجّ والبسّ تكون كالصوف المنفوش هنا وهناك ، والتشبيه هنا (مرسل مجمل) أيضاً وأركانه كالآتي الدال المشبه هو (الجبال) والدال المشبه به (العهن المنفوش)، وأداة التشبيه هي (الكاف)، ووجه الشبه هو(التفتت والتفرق والضعف)، فالجبال تصبح كالصوف المتناثر هنا وهناك، صورةٌ تشبيهيةٌ مهولة تُبيّن هشاشة الجبال وتفتتها يوم القيامة حتى تغدو كالصوف المتناثر المتطاير من شدة ذلك اليوم[١٠٢] .

▪ الخاتمة:

الحمد لله -ﷻ- الذي بنعمته تتمّ الصالحات ، والصلاة والسلام على سيّدنا محمدٍ -ﷺ- خاتم الرسالات ، وعلى آله الطيبين السادات ، وصحبه الميامين الثقات .

وبعد . . .**فلله الحمد أن منّ علينا بالانتهاء من هذا العمل المبارك ، وسنحاول هنا أن نسجل أهم النتائج التي تمخضت عن هذا البحث ومنها :**

❖ حاول البحث إظهار الأبعاد الجمالية للمشبه به في الخطاب القرآني التي منها والمدح والذم والإيضاح والترغيب وغيرها .

---

(١٠٢) ينظر: أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني، ، د.عمر محمد عمر باحاذق: ٢٤٨ .

❖ أثبت البحث بلاغة الصورة التشبيهية بشكل عام التي تُعدّ نمطاً من أنماط التصوير ، فهو يُقرّب البعيد ويُبرز المعاني في أشكالٍ يُجسّمها ويُصوّرها ويُمثّلها حيّةً نابضةً واضحةً للعيان ، وغالباً ما تُتّخذ الطبيعة ميداناً لأخذ صور المُشبّه به ، مع تخيّر أقربها للمتلقي وأكثرها تأثيراً عليه .

❖ ألمح البحث إلى إظهار إيثار التعبير القرآني لاستعمال مشبه به دون غيره لغرض يقتضيه السياق.

وختاماً، فهذا ما أمكنني الوقوف عليه من دراسة الأبعاد الجمالية للمشبه به في الخطاب القرآني.

■ **المصادر والمراجع:**

■ "الإبداع البياني في القرآن العظيم (في الأمثال ، والتشبيه ، والتمثيل ، والاستعارة ، والكناية)، محمد علي الصابوني، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٦ م".

■ "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود بن محمد العمادي الحنفي(ت٩٨٢هـ)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مطبعة السعادة، مصر، (د.ط) ، (د.ت) " .

■ "أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، شرح وتعليق: د.محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الإيمان، المنصورة ، (د.ط) ، (د.ت).

■ أسلوب الدعوة القرآنية بلاغةً ومنهاجاً، د.عبد الغني محمد سعد بركة، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

■ أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني ، د.عمر محمد عمر باحاذق ، دار المأمون للتراث، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤ .

■ إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ، بديع الزمان النورسي(ت ١٣٧٩هـ)، ت: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة ، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢ .

■ أصول البيان العربي في القرآن الكريم ، د.محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، بيروت– لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

■ الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم ، محمد حسين سلامة ، دار الآفاق العربية ، القاهرة– مصر ، ط١، ٢٠٠٢م.

- إعجاز القرآن ، أبو بكر محمد الطيّب الباقلاني (ت٤٠٣هـ) ، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت ، (د.ط) ، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.
- إعراب القرآن الكريم وبيانه، أ.محي الدين الدّرويش، دار اليمامة للطباعة والنشر، ودار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق – بيروت ، الطبعة السابعة، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.
- الإيجاز في كلام العرب ونصّ الإعجاز –دراسة بلاغية، د.مختار عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧ م. "
- البحر المحيط ، ابن حيان الأندلسي الغرناطي الشهير بأبي حيان(ت ٧٥٤هـ)، دراسة وتحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، شارك في تحقيقه: د.زكريا عبد المجيد النوتي، ود.أحمد النجولي الجمل، قرّظه: أ.د.عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ– ١٩٩٣م.
- البلاغة التطبيقية دراسة تحليلية لعلم البيان ، د.محمد رمضان الجربي ، منشورات جامعة ناصر، مسلاته–الجماهيرية العربية الليبية، الطبعة الأولى،١٩٩٧م .
- تاريخ النقد الادبي عند العرب، احسان عباس، دار الثقافة ، بيروت–لبنان، الطبعة الرابعة، ١٩٨٣ .
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، ابن أبي الأصبع المصري (ت٦٥٤هـ) ، تحقيق: حفني محمد شرف ، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة – الجمهورية العربية المتحدة ، (د.ط) ، ١٩٦٣م.
- "التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) ، محمد الطاهر بن عاشور (ت١٩٧٢هـ)، الدار التونسية للنشر ، تونس ، (د.ط) ، ١٩٨٤م.
- ترجمان البلاغة، محمد بن عمر الرّادوُياني، ترجمة د.محمد نور الدين، دار الثقافة– طهران، (د.ط)، (د.ت) .
- "التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، واجدة عبدالمجيد الأطرقجي، دار الحرية للطباعة، بغداد ،١٩٧٨م.
- التصوير البياني، د.حفني محمد شرف، المطبعة العثمانية، مكتبة الشباب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.
- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، د.محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م .
- التعريفات، أبو الحسن علي بن محمد الجرجاني المعروف بالسيد الشريف(ت٨١٦هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ–٢٠٠٣م.

- تفسير القرآن العزيز، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين(ت٣٩٩هـ)، ت: حسين عكاشة ومحمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة – مصر ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م .
- تفسير القرآن الكريم (سورة الصافات)، الشيخ محمد بن صالح العثيمين (ت١٤٢١هـ) ، مؤسسة السالة ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .
- التفسير الكبير ، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت٦٠٦هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .
- التلخيص في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، الطبعة الثانية، القاهرة،١٩٣٢م.
- جواهر البلاغة ، السيد أحمد الهاشمي ، علّق عليه ودقّقه: سليمان الصالح ، دار المعرفة للطباعة النشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م .
- حاشية القونوي علي تفسير الإمام البيضاوي ، عصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي (ت١١٥٠هـ)، ضبطه وصححه وخرّج أحاديثه: عبد الله محمود محمد عمر ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت– لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .
- حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله الهرري الشافعي، إشراف ومراجعة: د.هاشم محمد علي بن حسين مهدي ، دار طوق النجاة ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١م .
- خصائص الأسلوب في الشوقيات ، د. محمد الهادي الطرابلسي ، منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٨١م.
- دراسات في علوم القرآن، محمود البستاني، مكتبة العلم ، قم– إيران، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٧م.
- زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي القرشي البغدادي (ت٥٩٧هـ)، المكتب الإسلامي، دمشق– بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤ م .
- الشعر والتجربة، أرشيبالد مكليش، ترجمة سلمى الجيوسي، دار اليقظة العربيّة، بيروت، (د.ط) ، ١٩٦٣م.
- صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا – بيروت ، (د.ط) ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

- علم البيان ، د.عبد العزيز عتيق، دار الآفاق العربية، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة ، (د.ط)، ٢٠٠٤م .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨١م.
- العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي ، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م"" .
- في ظلال القرآن، سيد قطب(ت١٣٨٧هـ)، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة والثلاثون، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م .
- القرآن والصورة البيانية، د.عبد القادر حسين ، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.
- "الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي– القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.
- كتاب الجمان في تشبيهات القرآن، عبد الله بن الحسين بن ناقيا البغدادي، تحقيق: د.محمود حسن أبو ناجي، مركز الصّف الإلكتروني للتصميم والطباعة، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م.
- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت٣٩٥هـ) ، تحقيق: علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، (د.ط) ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .
- كتاب الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلويّ اليمنيّ (ت ٧٤٧هـ)، مراجعة وضبط وتدقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ -١٩٩٥م .
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري(ت٥٣٨هـ)، اعتنى به وخرّج أحاديثه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢م.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ)، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التّأريخ العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين نصر الله بن أبي كرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير

الجزري(ت٦٣٧هـ) ، تحقيق : كامل محمد محمد عويضة ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ –١٩٩٨م.

- مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب (ت١٣٨٧هـ) ، دار الكتاب الإسلامي ، قم – إيران ، ، (د.ت) .
- معجم المصطلحات البلاغية، د. أحمد مطلوب، الدار العربية للموسوعات، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- مفتاح العلوم ، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي(ت٦٢٦هـ) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة ، (د.ط) ١٣٥٦هـ – ١٩٣٧م .
- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر– بيروت ،(د–ط)١٣٩٩هـ– ١٩٧٩م".
- نظرات في التّمثيل البلاغي، محمود سيد شيخون ، دار البيان للطباعة والنشر ، دار البيان للطباعة والنشر، القاهرة ، (د.ط) ٢٠٠٣م .